الإلتقاط الفكري والتحجّر العقائدي

في نظرة العلامة المطهري



محسن آجيني

الألتقاط الفكري والتحجّر العقائدي

في نظرة العلامة المطهري

محسن آجيني

ترجمة: رعد هادي جبارة

منظمة الاعلام الاسلامي

٤٢٣

الكتاب : الالتقاط الفكري والتحجّر العقائدي في نظرة العلامة المطهري

المؤلف : السيد محسن آجيني

المترجم : رعد هادي جباره

الناشر : معاونية العلاقات الدولية في منظمة الاعلام الاسلامي — الجمهورية الاسلامية في ايران — طهران — ص.ب ١٤١٥٥/١٣١٣

تاريخ الطبع : الطبعة الاولى ١٤١٢هـ — ١٩٩٢م

النسخ المطبوعة : ٣٠٠٠ نسخة

المطبعة : رامين

الفهرست

مقدّمة الناشر

لا شكّ في أنّ الأُستاذ الجليل والعلّامة الفقيد آية الله المطهّري يُعدُّ إحدى الشخصيّات العلميّة والإسلاميّة الفريدة في بلادنا، وكانت لديه ــ خلال نصف القرن الأخير ــ الكثير من النشاطات العلميّة والمساعي الثقافيّة والتبليغيّة المؤثّرة والواسعة. ويمكن القول ــ بجرأة ــ إنّ هذا الأُستاذ الشهيد والمعلّم الجليل كان يتصدّر جميع النشاطات الفكريّة والثقافيّة التي قام بها العلماء الشيعة والمفكّرون الاسلاميّون في مجال التصدّي للغزو الثقافي الشرقي والغربي الّذي اجتاح بلادنا خلال العقود الأخيرة. و يُعتبر الكفاح العمليّ والإستدلالي ضدّ المدارس الفكريّة الشرقيّة والغربيّة، والتلفيقية الالتقاطية، والانحرافات الفكرية والمنهجيّة من أهم مكوّنات السجلّ اللّامع لمنجزات هذا الأُستاذ القدير.

ولقد دفعتنا حسّاسيّة هذا الاستاذ تجاه الآراء والنظريات المتمخضة عن الالتقاط الفكري والتحجُّر العقائدي ــ أياً كان نوعها ــ لتأليف هذا الكتاب وطبعه وهو حصيلة تحقيق السيد محسن آجيني و بحثه في مؤلّفات الأُستاذ الشهيد آية الله المطهّري ومدوّناته حول موضوع الالتقاط الفكري والتحجُّر العقائدي، وهو بحث جديد في نوعه وفي موضوعه.

آملين أن يكون نشر هذا الكتاب خطوة مؤثّرة باتجاه التدبُّر والتعمُّق في مؤلَّفات هذا الشهيد من قبل المحقّقين والمؤلّفين والعارفين بالعلوم الاسلاميَّة والاجتماعيَّة.

معاونية العلاقات الدولية في

منظمة الاعلام الاسلامي

مقدمة المؤلّف

إن إحدى وظائف العلماء والمفكّرين الاسلاميين اليوم تجاه مؤلّفات الفقيه الفيلسوف، و المفكّر الشهير، الاستاذ آية الله المطهّري (قدّس سرُّه)؛ المبادرة إلى التدبُّر والتحقيق ــ اكثر فأكثر ــ في أفكاره، وإخضاعها للبحث الموضوعي المستفيض.

وتبرز أهميّة الوظيفة المذكورة آنفاً اكثر حينما نعلم أنه وعلىٰ الرغم من قيام الأُستاذ المطهّري ببحث الكثير من المواضيع الإسلاميّة كلاً علىٰ حدَه، والتي توجد اليوم في متناول أيدينا علىٰ شكل عشرات الكتب والأشرطة المسجّلة، إلّا أنّ هناك مواضيع جمّة اخرىٰ توجد أيضاً، بَيْدَ أنّها بُحثت من قبل الاستاذ هنا وهناك و بشكل متفرّق في ثنايا كتبه ومدوّناته، ويمكن أن يؤدّي جمعها و بحثها ولملمة شتاتها إلى فتح سبل جديدة وآفاق رحبة في وجه طلّاب الحقيقة وعطشى الحق، وخصوصاً جيل الثورة الجديد، إلّا أنه ــ وللأسف ــ لم تحصل حتىٰ الآن مبادرات حثيثة وملفتة للنظر، في هذا المضمار.

وهذا الكتاب كان ــ في الأصل ــ مجموعة من المقالات التي تتناول موضوع (الالتقاط الفكري والتحجُّر العقائدي في نظر العلّامةالمطهّري) تمّت كتابتها بطلب من اللّجنة المشرفة على مراسم الذكرىٰ العاشرةلاستشهاد الأُستاذ

المطهّري، وقامت بنشره ـــ في حلقات ـــ صحيفة (رسالت) الغرّاء. و بعد إكماله وتنقيحه من جديد من قبل الكاتب تمَّ إخراجه على شكل كتاب هو الآن بين أيدي القرّاء الأعزاء.

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من آراء الاستاذ التي تخصُّ «الإلتقاط الفكريّ والتحجُّر العقائدي»[1] وردت في ثنايا مؤلّفات هذا المعلّم الجليل وكتاباته، و بعد أن تمَّ جمعها أُرفقت بها التوضيحات اللازمة وصيغت ككتاب واحد.

وختاماً نرىٰ من الضروري ذكر هذه النقطة، وهي: إن أيَّ إبداع وكمال يتضمنه هذا الكتاب يعود إلى الاستاذ الشهيد، وكلَّ عيب أو نقصان يعود إلىٰ مؤلّف الكتاب. وسوف لا يبخل القرّاء الاعزّاء عن رفدنا بانتقاداتهم واقتراحاتهم القيّمة ان شاء الله.

٢٧/١٠/١٩٨٩ محسن الآجيني

١ـــ إنَّ الاسم الاصليَّ للكتاب هو (التقاط وتحجر أز ديدگاه شهيد مطهّري) وبما أن كلمتي الالتقاط والتحجُر كلاهما عربية، كما ان كلاً من مؤلف هذا الكتاب والاستاذ **الشهيد المطهّري** قد استعملا كلمة الالتقاط واورداها في كلّ ما كتبا بشأن الموضوع، بل إنهما جعلا محور حديثهما يدور حول المعنىٰ اللغوي والاصطلاحي للكلمة ومواطن مجيئها في القرآن الكريم فاننا آثرنا الابقاء عليها وعدم استبدالها بمرادفات أُخرىٰ توجد في الكتب العربية من قبيل (الفكر المجين) او (الفكر الملفّق) او (الافكار التلفيقية) او (الفكر المختلط)... الخ لأن استبدالها يعني حذف قسم من الكتاب يرتكز إليها أساساً وإضافة قسم يقتضيه البديل الجديد للكلمة وهو مالم نرغب في القيام به. ومع ذلك فقد استعملنا بعض هذه المرادفات أحياناً متىٰماوجدنا السياق يقتضي ذلك أو كان مما لابدَّ منه.

وكذلك الحال بالنسبة لكلمة (التحجر) التي من مرادفاتها (الفكر المحافظ) أو (الركود الفكري) او (الجمود الفكري) او (التصلب الفكري) أو (الفكر التقليدي)... الخ، كلُّ ذلك اعتماداً على فطنة القارئ اللبيب، وما هذا التذكير سوىٰ اشارة لمفهوم مصطلحَي «الالتقاط» و «التحجر» وليصبح معروفاً أنهما يتضمنان المعاني والمفاهيم الوارد ذكرها آنفاً.

(المترجم)

المدخل

لا شكَّ في أنَّ الاستاذ الشهيد آية الله المطهّري يعدُّ من الشخصيّات التي كان لها القدح المعلّى والنصيب الاوفى في توضيح حقيقة الإسلام الأصيل النقي وتبيانها. ويمكن القول إنّ اسمه يعدُّ من بين أبرز اسماء الأشخاص الذي سلكوا سبيل الكفاح الايديولوجي والنضال في مجال التحقيق والتأليف ونشر الحقائق و بلورة واقع الاسلام للمجتمع، وخصوصاً لجيل الشباب، منذ العقد الخامس الميلادي من هذا القرن.

وكثيرون هم الذين تحدّثوا عن الاسلام أو ألّفوا الكتب فيه خلال هذه المدّة، بَيدَ أنَّ الّذين عالجوه وأوضحوه كما هو حقُّه كانوا قليلين، و يُعتبر الاستاذ الشهيد الأطول باعاً والارفع هامةً من بين هؤلاء الكتّاب والخطباء.

والميزات التي امتاز بها الاستاذ الشهيد آية الله المطهّري هي:

أوّلاً: إنّه عرض معارف الاسلام، وطرح حقائقه، مع الأخذ بعين الاعتبار متطلّبات المجتمع وحاجاته، وخصوصاً جيل الشباب والمثقّفين.

وثانياً: إنه كان يراعي مستوى مخاطبّيه فيما يكتب أو يخطب.

وثالثاً: إنه كان يقوم بمهمة الاجابة عن اسئلة الشبان واشكالاتهم ومشاكلهم خيرقيام، ويجد لها الاجوبة الناصعة والحلول الناجعة، نتيجة توفّره

الواسع واطلاعه الجامع على المدارس والمذاهب الغربية والشرقية، وخصوصاً الشبهات الناشئة عن المدارس الفكرية الأجنبية.

وهذه الميزات ذاتها هي التي ميّزت **الاستاذ المطهّري** عن غيره، وأعطت له بريقاً، واظفت عليه لمعاناً خاصاً، وأكسبت تأليفاته وأحاديثه بروزاً وتفرّداً خاصّين.

والمزية الأُخرى البارزة للغاية لدى الاستاذ هي (قدرته الفائقة على تعيين الإنحراف). **فحينما** تركت المدارس والنظريات الشرقية والغربية بصماتها الواضحة على أفكار الناس ــ وخصوصاً المثقّفين المسلمين ــ وتبلورت رؤىً وأفكار انحرافيَّة ومتنوّعة في محافلنا وأوساطنا الفكريَّة، بادر الأستاذ ــ بما عُهِد لديه من الرأي الثاقب والنظرة العميقة ــ إلى استعراض كلِّ الآراء والتعرف على وجهات النظر، والاطّلاع على الكتب والمواضيع المطروحة في أوساط المجتمع بدقة وتدبُّر، ومن ثمَّ أخذ يبدي ردَّ فعل سريع أينما شاهد أثراً للإنحراف الديني ــ مهما كان ضعيفاً وقليلاً ــ بحيث إننا إذا قمنا بإلقاء نظرة إجمالية وسريعة على ما تركه الأُستاذ من تراث فكري لوجدنا أنه قلّما يوجد كتاب او محاضرة خلّفها الاستاذ لا توجد فيها إشارة او تذكير بانحراف أو نظرة خاطئة او فهماً منحرفاً للموضوع المطروح للبحث.

ومن خلال الاطلاع على مؤلفات الاستاذ الشهيد ندرك أنَّ هناك محورين يبرزان من بين البحوث والمعالجات التي تطرَّق فيها الاستاذ الى الانحرافات الفكريَّة، كانا يستحوذان ــ أكثر من غيرهما ــ على اهتمامه؛

أحدهما: الالتقاط الفكري.

والآخر: التحجُّر والجمود.

فلقد أبدىٰ **الشهيد المطهّري** ــ في معظم مؤلّفاته ــ حسّاسية أشدّ تجاه هذين المحورين، وخصوصاً تجاه الالتقاط الفكري، وكان يشير ــ مراراً وتكراراً ــ إلى أخطارهما، ويحذّر منها.

ومن البديهي أنَّ سبب هذه الحسّاسية الشديدة والتأكيدات المتكرّرة

يعود الى دور هاتين الظاهرتين الانحرافيتين في المجتمع.

فعندما كان خطر (الالتقاط الفكري) ـــ الذي تعود جذوره الى فترات قديمة جداً سبقت أحداث ثورة الدستور (المشروطة) ـــ يهدّد فئاتنا المثقّفة ويحاصرها بالكامل، وحينما كانت أنواع الالتقاط الفكري الغربيّة والشرقيّة تلقي بظلالها على جموع الخرّيجين والدارسين والمتجدّدين المسلمين وتفرض عليهم هيمنتها؛ رفع **الشهيد المطهّري** لواء الكفاح والجدل المنطقي والفكري، متحدّياً أنواع الافكار الهجينة وأنماط الالتقاط الفكري.

ومع انتصار الثورة الاسلاميّة، وانفتاح الجوّ الفكريّ والسياسيّ في المجتمع، اكّد الشهيد المطهّري ـــ أكثر من السابق ـــ خطورة الالتقاط والتلفيق الفكري على النهضة الاسلامية محذّراً من نتائجه.

يقول سماحته في نطاق معالجته هذا الموضوع في كتابه «الحركات الاسلامية في القرن الرابع عشر الهجري»:

«واليوم وحيث بلغت النهضة الاسلاميّة في ايران أوجها وذروتها، وألقت بظلالها على بقيّة المدارس والنظريّات؛ نشاهد كلا الظاهرتين معاً. إذ أننا نرى أنَّ ثمّة فئة مرتبطة حقّاً بالمذاهب الفكريّة الاخرى وخصوصاً بالمذاهب والمدارس المادية، ولأنها تدرك أنْ ليس بالامكان اصطياد الشاب الايراني من خلال الشعارات و (الماركات) المادية، فانها طفقت تعرض الافكار الأجنبية الغريبة ولكن بماركة اسلاميّة. وبديهيٌّ أنَّ الإسلام الّذي يكون مشوباً بمضامين ماديّة، ولا يحتوي سوى قشرة خفيفة من الاسلام، حينما يُحشّى به دماغ شابٍّ ما ما يلبث أن يُلفَظ جانباً بسرعة.. هذا من جانب.

ومن جانب آخر، فإننا نرى ـــ وهو الأخطر ـــ أنَّ ثمّة أشخاصاً مسلمين لكنّهم غير مطّلعين على المعارف الاسلامية، بل يعشقون المدارس الفكريّة الاجنبية؛ يؤلّفون ـــ باسم الاسلام ـــ كتب الأخلاق ويروّجون لها، ولكنها في الحقيقة أخلاق الأجانب، وهكذا

أيضاً يكتبون في فلسفة التاريخ وفلسفة الدين والنبوّة والاقتصاد والسياسة والنظرة الكونيّة وتفسير القرآن.. وهلمّجرّا.

وانني باعتباري فرداً تقع عليّ مسؤوليّة إلٰهية، أُحذّر قادة النهضة الاسلاميّة الأجلّاء ــ الذين أكنُّ لهم وافر الاحترام والاكبار ــ وأُتمُّ الحجّة بيني وبين الله؛ أحذّرهم من تسلُّل الأفكار الأجنبيّة وانتشارها تحت اسم الفكر الاسلامي وبماركة إسلاميّة، سواءٌ كان ذلك عن نوايا سيّئة أم لم يكن، فانّه خطرٌ يهدّد كيان الإسلام». (٢)

وفي الكتاب نفسه، يقول الأُستاذ أثناء تطرُّقه للاستقلال الثقافي والآراء المشوبة بالالتقاط الفكري:

«إنَّ أيَّ نهضة ثقافية إسلاميّة تريد أن تقع ظهيراً لنهضتنا الاجتماعيّة، ينبغي لها أن تكون منطلقةً من عمق ثقافتنا العريقة، ومنبثقةً عنها، لا عن الثقافات الأُخرىٰ. أمّا أذا أردنا أن نقوم بالتقاط أجزاء من الثقافات والنظريّات الأُخرى ــ كالنظرية الماركسيّة ــ والوجوديّة وأمثالها ــ ثم نغطّيها بغطاء إسلامي من أجل أن توجّه نهضتنا في مسار إسلامي فهذا ليس كافياً قطُّ.

إن علينا أن نقوم بتدوين فلسفة الاخلاق، وفلسفة التاريخ، والفلسفة السياسيّة، والفلسفة الاقتصاديّة، وفلسفة الدين، والفلسفة الإلٰهية في الإسلام نفسه، والمنبثقة من تعاليم الاسلام، ونضعها بالتالي في متناول أيدي أفرادنا». (٣)

وفيما يخصُّ الآثار السيّئة التي تسفر عنها المدارس الفكريّة والأفكار الهجينة، والأخطار التي يمكن أن تؤدي إليها هذه الأفكار، كتب (رحمه الله):

٢ــ الحركات الاسلامية في القرن الرابع عشر الهجري/الشهيد المطهري/ص٨٩.

٣ــ المصدر نفسه/ص٧٤.

«ان ثورتنا ستحقّق الانتصار اذا ما قمنا بتعريف العالم على مدرستنا ونظريّتنا الفكريّة التي هي عبارة عن الإسلام النقيِّ الخالي من الشوائب. أي أنّنا اذا توفّرنا على الاستقلال الفكريّ، وقمنا بعرض مدرستنا الفكريّة مثلما هي، ومن دون حياء أو خجل؛ يمكننا أن نعقد على ذلك وطيد الأمل بتحقيق النصر.

امّا إذا تقرّر أن يتمّ إنشاء مدرسة فكرية هجينة مختلطة المضامين ــ تحت غطاء الاسلام ــ ويكون اسلوبنا ونهجنا أن نأخذ من كلِّ بيدر حفنة ومن كلِّ مشرب غَرفة؛ قليلاً من الماركسيّة وقليلاً من الوجوديّة وقليلاً من الاشتراكيّة وقليلاً من الاسلام أيضاً.. اذا جمعنا هذه الأشياء وخلطناها مع بعضها لينتج مزيج منها ونقول إنَّ هذا هو الاسلام.. اذا قمنا بذلك فمن الممكن أن يتقبّله الناس في البداية، لأنه ربّما كان ممكناً إخفاء الحقيقة لمدّة قصيرة، لكنَّ ذلك لن يبقىٰ طيَّ الكتمان دائماً والى الأبد، بل إن أشخاصاً سوف يظهرون فيما بعد من ذوي الفكر والرأي يفهمون الحقيقة، ويطرحون الاشكالات والمؤاخذات فيقولون لمن يقوم بذلك: إنك تطرح كلاماً باسم الاسلام والاسلام منه براء، فالمصادر الاسلاميّة معروفة وهي: القرآن الكريم والسنّة النبوية، كما أن الفقه الاسلاميّ والاصول الاسلاميّة كلّها معروفة ومحدّدة، ومن جهة أُخرى فانَّ الكلام الذي تطرحه باسم الاسلام هو الآخر معروف ومشخّص. وعند المقارنة بين الأمرين يتّضح بجلاء أنك اقتبست ذلك الكلام من الماركسيّة مثلاً، وبعد ذلك ألقيت عليه غطاءً ولبوساً إسلاميّاً.

والنتيجة هي أن نفس هؤلاء الأشخاص الذين اقبلوا على الاسلام وتقبّلوا تلك الأفكار الهجينة باسم الاسلام سوف ينفرون بشدّة ويبتعدون بسرعة عن الاسلام بعد تجلّي الحقيقة.

ولهذا فإنَّ ضرر هذه المدارس ذات الأفكار الهجينة الملتقطة

على الاسلام انما هو ــ حسب اعتقادي ــ إن لم يكن اكثر من ضرر نفس المذاهب الفكريّة المعادية للاسلام بشكل صريح وعلني، فهو ليس بأقل منها، واذا أرادت ثورتنا أن تستمرَّ في مسيرتها منتصرة مرفوعة الرأس فينبغي لها أن تطهِّر نفسها من هذه الظواهر، وأن تتحرَّك في سبيل إحياء قيم الاسلام الحقيقي ألا وهو اسلام القرآن وأهل البيت». (٤)

وطبعاً فإنَّ الشهيد الكبير المطهَّري وبموازاة تحذيره من الالتقاط الفكريّ كان يشنُّ حملاته ــ كذلك ــ على التحجُّر والجمود والتقدُّس القشري تحت غطاء الدين، وكان يركّز في خطاباته كثيراً على أخطار مثل هذه الميول والتوجُّهات بين الناس العوام والمتديِّنين وحتى الاوساط الفقهيَّة والحوزويَّة.

وتتجلّى أهمية هذا البحث في الظروف الحالية اكثر من زاوية أن ثورتنا الاسلاميَّة تواجه كلا الظاهرتين؛ فظاهرة «الالتقاط الفكري» موجودة ومشهودة، وكلَّما في الأمر أنها تتستَّر بمظاهر وشعارات أحدث واكثر عصريةً، وظاهرة التحجُّر والجمود والتقدُّس القشري هي الأُخرىٰ موجودة أيضاً. ومن الضروري البحث والتدقيق في الجذور الفكريَّة لكلا الظاهرتين.

وفي هذا المضمار، نتطرق أوّلاً إلى موضوع معنى الالتقاط الفكري ومضمونه، وبعد ذلك نتناول بالبحث انواعه وأشكاله وبالتالي ندلف ــ ان شاء الله ــ الى البحث الأصلي للموضوع وهو أنماط الالتقاط الفكري ومصاديقه، كلُّ ذلك في إطار الكفاح الفكري الذي خاضه الشهيد المطهّري ضدَّ تلك الانماط والمصاديق، من خلال مؤلَّفات الشهيد وكتاباته.

---

٤ ــ حول الثورة الاسلامية/الشهيد المطهّري/ص٥١و٥٢.

الفصل الاول

الالتقاط الفكري

*أولاً:

معنى الالتقاط الفكري وأنواعه

(الالتقاط) لغةً يعني **(الأخذ)**[1]. وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم مرتّين، مرةً؛ في الآية العاشرة من سورة يوسف، حيث قال جلّ شأنه:

«قَالَ قَائِلٌ مِنهمْ لا تَقتُلُوا يُوسُفَ وألقُوهُ في غَيابَتِ الجُبِّ يَلتَقِطُهُ بَعضُ السيَّارةِ إن كُنتُم فاعِلِينَ».

ومرةً أُخرىٰ يقول ــ عزّوجلّ ــ في الآية الثامنة من سورة القصص:

«فَالتَقَطَهُ آلُ فِرعَونَ لِيَكُونَ لَهُم عَدُوّاً وَحَزَناً...»

وكما يلاحَظ، فأن لفظ (الالتقاط) قد ورد في كلا الآيتين بمعنىٰ «الأخذ». ففي الآية الاولىٰ أُشير إلىٰ أخذ يوسف من البئر من قبل أهل القافلة، وفي الآية الثانية أخْذ موسىٰ (ع) من الماء من قبل آل فرعون.

اما من حيث المعنى الاصطلاحي فانَّ الالتقاط يعني أخذ قسم من فكر او نظرية وخلطه بمضامين نظرية أُخرىٰ. كأن يؤخذ قسم من النظرية الماركسيَّة أو الوجوديَّة وغيرهما ويُخلط مع أفكار الاسلام أو المسيحيَّة أو باقي النظريّات.

١ــ المعجم الجامع (ج٤/ص١٤٤٧/أحمد سياح ــ المترجم).

* انواع الالتقاط الفكري

يمكن تقسيم الالتقاط الفكري ــ حسب معناه الاصطلاحي ــ من ناحيتين: من حيث الكيفيّة، ومن حيث النظريّات والمدارس الفكريّة.

فمن حيث الكيفية، ينقسم الالتقاط الفكري إلى نوعين:

١ــ الالتقاط العلني:

في هذا النوع من الالتقاط الفكري يؤخَذُ قسم من احدىٰ النظريّات بشكل علني وصريح ويُضم الى نظرية أُخرىٰ. وعلى سبيل المثال يتمُّ إحلال الاقتصاد الاشتراكي أو الرأسمالي محلّ الاقتصاد الاسلامي. في هذه الحالة يتم تقبُّل الاسلام من حيث بُعده الفلسفي والعقائدي، والاشتراكية أو الرأسمالية أو الليبرالية من حيث أبعادها الاقتصادية أو السياسية.

ويمكن مشاهدة مثل هذا النوع من الالتقاط في بلدان مثل سوريا وليبيا والجزائر وغيرها. في هذه الدول يصرِّح دستور كلٍّ منها أن الدين الرسميَّ هو الاسلام، ولكنَّ اقتصاد البلاد اقتصاد اشتراكي.

ونظير ذلك ما يشاهد في التاريخ السياسي في ايران، حيث وُجِدت فئات كانت تتصف بالالتقاط الفكري، منها ــ على سبيل المثال ــ حزب عُبّاد الله الاشتراكيين، والذي كان له حضوره في الساحة السياسيّة خلال العقد الرابع من هذا القرن. إذ إنه يتبنّىٰ الاسلام ديناً، بَيدَ أنه يُصرّح أنَّه يتبنّى الاقتصاد الاشتراكي.

وهذا النوع من الالتقاط الفكري ينطوي على خطر أقل لأنَّه يعلن جهراً وعلانية أنَّه يتبنّى الالتقاط وقد انتخب الجزء الملتقط من افكاره علناً وبدون مواربة أو تستُّر.

٢ــ الالتقاط الخفي:

وخلافاً للالتقاط العلني فانَّ الالتقاط الخفيَّ لا يعلن اقتراض افكاره من المذاهب الفكرية الاجنبية بل يقوم بهذه العمليّة بشكل ضمني. وبعبارة أُخرىٰ؛

إنه يتستَّر على الجزء المقتبس من المذاهب الأجنبية عبر إضفاء مسحة وصبغة اسلاميَّة عليها، وتقديم المسوِّغات الاسلامية لها، وبالتالي فانَّ هذا الالتقاط يبقى مخفياً عن أعين الأشخاص السذَّج ذوي النظرات السطحيَّة.

ولقد كان هذا النوع من الالتقاط هو الأكثر شيوعاً في ايران، وكانت الغالبيَّة الساحقة من المدارس والنظريّات الالتقاطيَّة من هذا النوع. وتندرج في هذا الاطار فئات وتيّارات كالليبراليين ومنظَّمة المنافقين وحركة المسلمين المناضلين، والفرقان وو... وغيرها.

في الالتقاط الخفي تؤخذ آراء المدارس الأجنبية (كالماركسية مثلاً) وتجري محاولة تسويغها عبر ايراد مجموعة من الآيات والروايات، او كما يقال تتمُّ (أسلَمَتُها).

ويمكن أن يكون الالتقاط الخفي نفسه على وجهين:

١ــ جزئي.

٢ــ كلّي.

وفي الالتقاط الخفي الجزئي، يتمُّ أخذ قسم من مذهب فكري أجنبي ويُضمُّ إلى الاسلام ويندمج فيه مشفوعاً بتسويغ اسلامي. بَيدَ أنَّ الأمر يتمُّ في الالتقاط الخفيِّ الكلي بشكل تكون فيه نظريَّة المذهب الفكري الأصلي وتحليله والروح السائدة فيه هي النظريَّة والتحليل والروح العائدة للمذهب الفكري الأجنبي.

في الالتقاط الجزئي، يتم أخذ أُسس الفلسفة أو الاقتصاد او التحليل الاجتماعي والتاريخي مثلاً، وتُقدَّم لها التسويغات المناسبة، أمّا في الالتقاط الكلي فإنَّ كلَّ العقائد سواء الاسس الفلسفيَّة والعقائديَّة أو الاقتصاديَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة والتاريخيَّة للدين يتم عرضها من خلال التحليل والنظرة الأجنبية وفي إطارها، ولكنْ بمظهر ولباس إسلامي.

ويعتبر هذا النوع من الالتقاط (الالتقاط الخفي الكلي) أخطر أنواع النظرات الالتقاطيَّة الهجينة، وأساساً فانَّ أحد الأساليب الماديَّة الهادفة لإشاعة

الفكر الالحادي المادي في المجتمعات الدينيّة هو عرض الفكر الالتقاطي من هذا النوع.

يقول **الشهيد المطهّري** في هذا المجال:

«لقد تمسَّك المنهج المادي في ايران خلال السنة او السنتين الأخيرتين بحيلة ماكرة وخطيرة للغاية وخطرها اكبر من خطر تشويه الشخصيات، وهو تحريف آيات القرآن الكريم وتفسير آياته تفسيراً مادياً مع الحفاظ على القوالب الظاهرية للالفاظ. هذه الحيلة تُعتبر حيلة جديدة ولم يمضِ على ظهورها في ايران سوى أقل من عامين. وطبعاً فان أصل هذه الخطّة والحيلة ليس شيئاً جديداً، وانّما هي خطّة وضعها **كارل ماركس** من أجل اجتثاث جذور الدين من أذهان الجماهير المؤمنة قبل اكثر من مئة عام.

وتتلخّص خطّة **ماركس** في أنه من أجل مكافحة الدين بين جماهير مؤمنة به ينبغي استخدام الدين نفسه لضرب الدين بحيث يتمُّ تفريغ المفاهيم الدينيّة من مضمونها المعنويّ والأصليّ، ثمّ ملؤها بمضمون مادّي، لكي تفهم الجماهير الدين وتنظر إليه على أنّه مذهب مادّي وبعد هذه المرحلة فإنَّ التخلُّص من القشرة الدينيّة الظاهريّة يصبحُ أمراً سهلاً وهيّناً.

ينقل كتاب (ماركس والماركسيّة) مقطعاً من مقال كتبه **لينين** تحت عنوان (موقف العامل من الدين) جاء فيه:

إن نظريّة **ماركس** هي النظريّة الماديّة ذاتها. وهي من هذه الناحية تماثل ماديّة الانسكلوبيديين او مادية **فويرباخ**(٢) فهي تعادي

٢ـ لودويك أندريه فوير باخ (١٨٠٤ـ١٨٧٢م) فيلسوف ألماني طُبعت مؤلّفاته في ١٠ مجلّدات بين عامي ١٨٤٦و١٨٦٦م في لايبزك، و١٩٠٣ـ١٩١١م. هاجم الخلود الشخصي والدين، وقال: إن المسيحية قد فنيت من الوجود وليس من العقل فحسب بل وحتى من الحياة

الدين وتعانده.. لكنَّ الماديَّة الجدلية تذهب ــ في مجالات التاريخ والعلوم الاجتماعية ــ إلى ابعد مما يذهب إليه الانسكلوبيديون او **فويرباخ**. (يجب أن نهدم الدين)... هذا هو ألفباء أيّ نوع من الماديَّة ولهذا **فهو** الفباء **ماركس** أيضاً.

بَيدَ أنَّ نظريّة **ماركس** تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك: ينبغي معرفة كيف يمكن مكافحة الدين، ومن أجل ذلك ينبغي توضيح مرتكزات إيمان الجماهير وأُسس دينها بالمفاهيم الماديَّة». [٣]

وقد تمَّ تطبيق تعليمات **ماركس** هذه في ايران أيضاً، وكانت معظم الفئات والتيَّارات المنحرفة والالتقاطيَّة في الستينات والسبعينات الميلاديَّة من هذا النوع. يقول الاستاذ الشهيد في هذا المجال:

«إن مطالعة المدوَّنات التي تُدعىٰ بالتفاسير والتي نُشرت خلال السنة أو السنتين الاخيرتين لا تُبقي أيَّ مجال للشكِّ في أنَّ هناك مؤامرة عظيمة يجري تدبيرها. ولا أشكُّ في أن مثل هذه المؤامرة يدبِّرها أعداء الدين لضربه. ولكنَّ موضع الشكِّ لديَّ؛ هل إن مؤلِّفي هذه الكتيبات أنفسهم قد خُدعوا أيضاً ولا يعون ما يفعلون، ولا يعرف حقيقة ما يجري سوىٰ الأيدي الخفيَّة؟ أم أنَّ هٰؤلاء يقومون بما يقومون به ــ عن علم وعمد ــ لتقديم هكذا تفسيرات ماديَّة لكتاب مقدَّس عند ٧٠٠ مليون مسلم؟

البشرية ولم تعد سوىٰ فكرة مركَّزة.

وفي كتاب آخر له يَعتبر علم الالهيات علماً بشرياً ويُخضِعه للعقل ويطرح فكرة (ان الانسان مفردة خاضعة للعقل وان الدين هو ادراك او تصوّر للشيء اللامتناهي ولذلك فانه ليس أكثر من سبيل لإدراك او استيعاب لانهائية الوعي ولامحدوديته، ولهذا فإن الله هو المظهر او المصداق الخارجي لجوهر الانسان) حسبما يَعتقد (المترجم عن: الانسكلوبيديا البريطانية/ج٩/ص٢٠٧و٢٠٨).

٣ــ الدوافع نحو المادية/الشهيد المطهري/ص ٣٣و٣٤.

انـنـا نرجّـح ــ في الوقـت الحـاضرــ أن نسـميّ المـاديَّة التي يـروَّج لها خلال السنة او السنـتين الآخـيرتين على شكل تفسير لآيات القرآن انما هي مـاديَّة مخدوعة مغفَّلة، واذا ما استمرُّوا بعد هذا التذكير وهذه الملاحظات في سلوك الطريـق الذي يسلكونه الآن فإنَّنا سنكون مضطرِّين لتسمية تلك المادية بـ«الماديَّة المنافقة». (٤)

ووفقاً للنوع الثاني من التصنيف للماديَّة أي تصنيفها من حيث النظريّات والمدارس الفكريَّة، يمكن تقسيم الالتقاط الى الانواع التالية:

١ــ الالتقاط من المدارس الغربية:

المقصود بالالتقاط مـن المدارس الغربية هو أخـذ قسم من أفكار المدارس الفـلسفـيَّة او السيـاسيَّـة او الاقتصـاديَّة السائـدة في الغـرب وضمّـه إلى الإسلام. وكذلك اقتـبـاس آراء المدارس الغربيَّـة وتحليلاتها، وعـرض العقائـد والاحـكام الاسلامـيـة في اطار تـلـك الآراء والـتحـليلات ينضـوي هـو الآخر تحـت عـنوان الالتقاط من المدارس الغربيَّة.

في هـذا النوع مـن الالتقـاط يـتمُّ ضمُّ أجـزاء من المدارس الـفكريَّة التي كان الغرب منطلقها مثل الليبراليَّة والاومانيَّة والرأسماليَّة إلى الاسلام.

وهذا النوع من الالـتـقـاط ذو جذور في إيران وتعود جـذوره الى مـا قـبل ثورة الدستور (المشروطة).

أول المـنادين بهذا النوع مـن الالـتقاط **(الميرزا ملكم خان ناظم الدولة)**. فهو من بين اوائل الاشـخاص الذين سافروا إلى الغرب، وجلبوا معهم عند عودتهم إلى ايران الثقافـة والفكر الغـربي، ومع أخذ العقـائد الدينيَّـة للشعب الايراني بنظر الاعتبـار فقد حاول صـياغة افـكاره الغربـية وطرحـها وهي مغطّـاة بغطاء الـدين والاسلام. وقـد طرح ــمن أجل هذا الـغرض ــ فكرة (البروتستـانيَّة الاسلامية) او (الاصلاح الديني).

٤ــ المصدر ذاته/ص ٣٥.

نظراً لأهميَّة التعرُّف على جذور ظاهرة الالتقاط من المدارس الغربيَّة في ايران نرى ضرورة الاشارة إلى بعض أفكاره وآرائه بإعتباره أحد مؤسِّسي فكرة الالتقاط من المدارس الغربيَّة.

كتب **الميرزا ملكم خان** متحدّثاً عن سيرة حياته:

«أنا شخصياً أرمني مسيحي، ولكنني نشأتُ وتربيتُ بين المسلمين، وأحمل وجهة نظر اسلاميَّة... حينما كنت في اوربا درستُ الأنظمة الاجتماعيَّة والسياسيَّة والدينيَّة جيِّداً، وتعرَّفت على أُصول مختلف أديان العالم النصراني، وكذلك على التنظيمات السريَّة والماسونيَّة. وبعد ذلك وضعت خطَّة يمتزج فيها عقل الغرب وسياسته مع ادراك دين الشرق وعقله. وارتأيت أن تغيير ايران على شاكلة اوربا محاولة عقيمة ومسعى لا فائدة من ورائه، ومن هنا فقد طرحت (فكرة الرُّقي المادي) في قالب ديني ليتسنّى لأبناء بلدي أن يدركوا ذلك جيِّداً. وقد دعوت رفاقاً وأشخاصاً محترمين الى محفل خاص تحدثت فيه عن (ضرورة تهذيب الاسلام وإدخال اصلاحات عليه وتوسَّلت بالشرف المعنوي والجوهر الانساني)».(٥)

وخلال العقود القليلة الماضية كان هناك مؤيِّدون عدّة للالتقاط من المدارس الغربيَّة، ومن بين الفئات التي تحمل هذا النمط من الالتقاط (الليبراليون). وسوف نتطرق فيما سيأتي الى أفكار هذه الفئة وكذلك المواقف التي اتخذها **الشهيد المطهري** تجاه هذا النمط من الافكار الالتقاطية.

٢ـ الالتقاط من المدارس الشرقية:

لا تمتلك ظاهرة الالتقاط من المدارس الشرقيَّة وبالتحديد الأفكار الماركسيَّة نفس عمق جذور الالتقاط من المدارس الغربيَّة، ويمكن القول إنَّ ظهورها قد بدأ منذ سنيّ ما بعد آب ـ ايلول من عام ١٩٤١.

٥ـ أفكار الرُّقي/ص ٦٤و٦٥.

وإثر ظهور الماركسيَّة ونشوء الفئات الماركسيَّة مثل حزب (توده) شاعت الأفكار المتأثّرة بالتعاليم الماركسيَّة بين بعض المثقَّفين المسلمين. ويبدو أن السبب الأصليَّ لهذا النوع من الالتقاط الثقافيّ هو فقدان الهويّة والذات لدى المثقفين المسلمين في ذلك الحين (بعد آب ـــ ايلول ١٩٤١) تجاه الافكار والدعايات الماركسيَّة الخادعة، وخصوصاً طرح الاشتراكيّة على أنها نظريَّة النضال ومذهب الدفاع عن المحرومين والعمّال. ولذلك شهدنا نشوء تنظيم أُطلِق عليه (عبّاد الله الاشتراكيون) بين جمع من المثقَّفين والشبّان المسلمين استمرَّ في نشاطه حتى عام ١٩٥١م.

ويوضح اسم هذه التنظيم ـــ بجلاء ـــ اتجاهاته الالتقاطيَّة من الشرق، إذْ اعتنق اعضاؤه الاسلام من حيث الاسس العقائديَّة والفلسفيَّة، وآمنوا بالاشتراكيَّة من الناحية الاجتماعيَّة والسياسيَّة، وحتى الفئات التي ظهرت بعد ذلك إثر انحلال هذه الفئة وتلاشيها، وتلك التي انطلقت من داخلها وابتُنيت على ما تبقّى من آثارها اختارت المنهج الالتقاطيَّ ذاته.

ومع مطلع العقد السادس من هذا القرن الميلادي، وبعد قيام انتفاضة العلماء الدامية في ١٥ خرداد ـــ ٥ حزيران، بقيادة سماحة **الامام الخميني** (رض) واثر انطلاق الشرارة الاولى للحركة المسلَّحة على يد الهيئات الاسلاميَّة المؤتلفة بإشراف العلماء فإنَّ قسماً آخر من المثقّفين والخرّيجين المسلمين الذين وقعوا تحت تأثير تعليمات الليبراليِّين (النظرة العلميَّة المحضة) من جهة، وفقدان الهويَّة والذات تجاه الماركسيَّة باعتبارها تحمل راية النضال من جهة ثانية؛ فكَّروا هم أيضاً بخوض النضال المسلَّح، وبذلك نشأ نهج فكريٌّ التقاطيٌّ اكثر حدَّةً في الاقتباس من الماركسيَّة.

وهكذا تبلورت فئة انتهى مآلها اليوم إلى مَن صاروا يُعرفون باسم (المنافقين)، وقد ألقت بنفسها ـــ خلال سلوكها منهجاً انحرافياً والتقاطياً ـــ في أحضان الماركسيَّة في عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥م معلنةً ذلك بشكل رسمي، ومجاهِرةً بأنها قد اختارت المذهب الماركسيَّ عقيدة لها.

وكان الاعتناق الرسمي للماركسيَّة هو النتيجة التي توقَّع حصولها الاستاذ **الشهيد المطهري** في كتابه (الدوافع نحو المادية) معتبراً أنها هي المصير النهائي لأيّ تفكير التقاطي يقتبس بعض أفكاره من الماركسية. يقول الشهيد في هذا الصدد:

«إن خطّة **ماركس** هي انه لغرض مكافحة الدين في صفوف الجماهير المؤمنة به ينبغي الاستفادة من حربة الدين نفسه ضدّ الدين، بحيث يتمُّ إفراغ المفاهيم الدينيَّة من محتواها المعنوي والأصلي، وملؤها بالمضامين الماديَّة حتى تفهم الجماهير الدين على أنَّه مدرسة ماديَّة المضامين، وبعد هذه المرحلة تُصبح إزالة القشور الظاهرية الدينيَّة امراً سهلاً وهيّناً». (٦)

وفي السنوات التي تلت عام ١٩٧٥م ظهرت فئة أُخرىٰ تُدعىٰ (الفرقان)، وهي ترتكز علىٰ نفس النمط من الافكار الالتقاطيَّة الهجينة مع الأفكار الماديَّة، ويمكن اعتبارها النموذج الثاني للالتقاط الشديد من الماركسية.

وقد ا متدت أيدي هذه الفئة الملوثة ــ بناء على فهمها المنحرف وأفكارها الالتقاطية، وانطلاقاً من عنادها وحقدها الاعمىٰ علىٰ شخصية جليلة رفيعة الشأن وهي شخصية **الشهيد المطهّري** ــ وخرجت من أكمام الجريمة لتوجّه رصاص حقدها الاسود وغيضها الشيطاني إلىٰ صدور العديد من الشخصيّات المخلصة والوجوه المؤمنة ومن بينها الاستاذ **الشهيد المطهّري** نفسه، ملطّخة أيديها بدمائهم الطاهرة.

٦ــ الدوافع نحو المادية/ص ٣٣.

* ثانياً:

أنماط الالتقاط الفكري وفقاً لمؤلَّفات الشهيد المطهّري

من خلال مطالعة سريعة لمؤلَّفات الأُستاذ الشهيد ندرك أنه قد عالج خمسة محاور أصلية للبحث باعتبارها أنماط التفكير الإلتقاطي. بعض هذه المحاور الخمسة يمكن أن يكون بشكل مستقل ومباشر اتجاهاً التقاطيّاً قائماً بحدّ ذاته، وبعضها الآخر يحمل أفكاراً متأثّرة بالمناهج الالتقاطيّة او هو نمط من أنماطها. كما أنَّ بعض المحاور آنفة الذكر تندرج في إطار الالتقاط من الغرب، وبعضها الآخر يدخل في نطاق الالتقاط من الشرق، وبعضها يعدُّ تلفيقاً لكليهما معاً.

على كلّ حال، فإنَّ تلك الانماط الالتقاطيّة عبارة عن:

١ــ العقلانية المفرطة.

٢ــ العلمية المحضة.

٣ــ النظرات الماديّة للمجتمع والتاريخ ومعارف القرآن و...الخ.

٤ــ الاجتهاد الحر في مقابل الاجتهاد التفقُّهي.

٥ــ انتقال القيادة من العلماء إلى المثقّفين.

* العقلانية المفرطة:

أحد أنماط التفكير الالتقاطي الذي يمكن اعتباره تأثّراً بتعاليم الغرب

وأفكاره موضوع (اعطاء الأصالة للعقل في مقابل الوحي). ويعالج الاستاذ **الشهيد المطهّري** هذا المنهج الفكري في كتابه القيم (الوحي والنبوّة) وفي اطار بحثه لموضوعَي (ختم النبوّة) و (معجزة الخاتمية) بدقّة متناهية وعمق كبير. والبحث الأصلي في هذا المضمار هو: هل إنَّ العقل يمكنه في الأساس ـ وبمعزل عن الوحي والمعجزات والادلّة الغَيبية الالهية ـ أن يكون هادياً ومرشداً للبشر؟ وهل يصلح «العقل المستقلُّ عن هداية الوحي» لأنْ يكون ملاكاً ومرتكزاً للانطلاق والتحرُّك نحو الكمال؟

إنّ التفكير الالتقاطيَّ الَّذي نبحثه هنا يقول بـ(استقلال العقل عن الوحي) بل وحتىٰ (حلول العقل محل الوحي). وهذا النمط من التفكير ينظر حتىٰ لموضوعَي (الخاتميَّة) و (المعجزة) وفقاً للمنظار ذاته ويعطيها التفسير الذي يرتكز إلىٰ نفس تلك النظرة.

ويعالج الاستاذ هذا النمط من التفكير وكذلك التفاسير الخاطئة والمنحرفة لقضيَّة (ختم النبوّة) و (المعجزة) في كتاب «الوحي والنبوّة» بشكل تفصيلي ومسهب، ويطرح عليه العديد من الاشكالات بشكل علني صريح.

ويَعتبِر الاستاذ الشهيد هذا النمط من التفكير ـ الذي اطلقنا عليه تسمية (العقلانية المفرطة) ـ متأثّراً بالثقافات الغربيَّة التي تستند بشكل أساس إلى (العلم والعقل التجريبي)، ويرىٰ أنَّ تلك الثقافات قد تركت انطباعاتها علىٰ أفكار بعض المفكّرين والمثقَّفين في العالم الاسلامي. ويعتقد سماحته أنَّ المصمِّم الأصلي والمبتكر الأول لهذا المنهج الفكريّ هو **المرحوم العلّامة اقبال**، ويرىٰ أن بعضاً من المثقَّفين المسلمين في بلادنا بالذات قد اقتفوا اثر خطىٰ **اقبال** وآمنوا بآرائه. يقول الشهيد في هذا المجال:

«الحقيقة هي أنَّ **العلّامة اقبال** ورغم كل ما يتميَّز به من البروز والنبوغ والإخلاص للاسلام، فإنَّ ثقافته غربية، كما أن ثقافته الاسلاميَّة تُعدُّ ثقافة ثانويَّة بالمقارنة مع ثقافته الغربيَّة. أي أنَّ دراسته

كلّها كانت في الاختصاصات الغربيّة، وفي مجال الثقافة الاسلاميّة وخصوصاً في (الفقه والعرفان وقليلاً من الفلسفة) كان له شيء من الاطلاع وحسب، وأحياناً كان يقع في بعض الأخطاء الفاحشة.

ولقد أشرنا في مقدّمة الجزء الخامس من كتاب اصول الفلسفة والمنهج الواقعي إلىٰ قصور فكر **اقبال** في القضايا الفلسفيّة العميقة ». [٧]

وقبل بحث هذا الرأي مفصَّلاً نقوم باستعراض شواخص تلك الفترة من وجهة نظر الاستاذ بشكل إجمالي وموجز، وبعد ذلك سوف نبحثها بالتفصيل. والاشكالات الأصليّة لهذه الفكرة من وجهة نظر الاستاذ الشهيد عبارة عن:

١ــ إحلال العقل البشري محل الوحي الإلٰهي:

بعد نقل هذه الآراء يقول الاستاذ الشهيد:

«... لو صحّت هذه الفلسفة فلا تكون هناك حاجة لوحي جديد ونبيٍّ جديد بل لا تكون هناك ثمّة حاجة مطلقاً لهداية الوحي لأنَّ هداية العقل التجريبي تقوم مقام هداية الوحي. واذا صحّت هذه الفلسفة فانّها فلسفة ختم الديانة لا ختم النبوّة». [٨]

٢ــ اعتبار العقل مستقلّاً وعدم الحاجة لهدايته بواسطة الوحي:

«ليس معنىٰ ختم النبوّة هو أنَّ حاجة الانسان للتعاليم الإلٰهيَّة والتبليغ الواصل من طريق الوحي قد ارتفعت، ولا لأنَّ البشر لم تعُد له حاجة لهذه التعاليم نتيجة بلوغه ونضجه الفكري فقد اختُتِمت النبوّة». [٩]

٧ــ مقدمة للرؤية الكونيّة الإسلاميّة ــ الوحي والنبوّة/ص ١٧٧.

٨ــ المصدر نفسه/ص ١٧١.

٩ــ المصدر نفسه/ص١٦٨.

«ان هذا التسويغ الخاطئ الذي طرحه اقبال لختم النبوّة أصبح سبباً في الخروج بتلك النتيجة الخاطئة من أقواله وللظن بأن مرحلة ختم النبوّة تعني مرحلة استقلال البشر عن الوحي».[10]

٣ــ الفهم الخاطئ للاجتهاد في عصر الخاتمية:

يفسّر اقبال وغيره الاجتهاد ــ علىٰ أساس نظرتهم لـ (العقل والوحي) ومسألة (الخاتمية)ــ بالشكل التالي: وهو أنه مع انتهاء حاجة البشر إلى الوحي والانبياء، فإنَّ الانسان طفق يعمل بالاجتهاد ــ استناداً إلى العقل. وبالاعتماد علىٰ مصدرَي الطبيعة والتاريخ ــ ويقوم بسدّ حاجاته عن هذا الطريق في عصر الخاتميَّة.

ثم يبادر الاستاذ الشهيد إلىٰ نقل هذا الرأي ونقده كمايلي:

«إن البشر في مرحلة الخاتمية كذلك، قد حصل على شهادة التخرُّج تزامناً مع إعلان ختم النبوّة، وبلغ مرحلة الاستغناء عن الدراسة الكلاسيكيَّة وطفق يدرس الطبيعة والتاريخ بشكل مستقل، ويبحث فيهما، وهذا هو ما يعنيه الاجتهاد. فختم النبوّة ــ اذن ــ يعني بلوغ البشر مرحلة الاكتفاء الذاتي، ولاشك في أن مثل هذا التفسير لختم النبوّة خاطئ»[11]

٤ــ اعتبار المعجزة والادلّة الغيبية متضادّة مع الرشد والبلوغ العقلي للبشر:

الاشكال الأخير الذي يؤخذ علىٰ (العقلانيَّة المفرطة) هو اعتبارها أن المعجزة وخوارق العادة تعود لمرحلة طفولة البشر، اما في مرحلة البلوغ العقليِّ للانسان ــ وهي مرحلة الخاتميَّة ذاتها ــ فليس ثمَّة حاجة للمعجزة والأدلَّة الغيبيَّة، طبقاً لرأي المنهج العقليِّ المتطرِّف.

١٠ــ المصدر نفسه/ص١٧٣.

١١ــ المصدر نفسه/ص١٧٣.

«لقد كان عصر ما قبل الخاتميَّة هو عصر المعجزة والكرامة، أي أنَّ المعجزة والكرامة سخَّرتا العقول لتأثيرهما، بَيدَ انَّ عصر الخاتميَّة هو عصر العقل، والعقل لا يعتبر رؤية الكرامة دليلاً علىٰ أمرٍ ما إلّا أن يكتشف ذلك الأمر بمعاييره الخاصَّة به لإثبات صحَّة حقيقة مكتشفة عن طريق الإلهام وصدقها. وهذا الجزء من كلام **إقبال** مرفوض هو الآخر، سواء من حيث مرحلة ما قبل الخاتميَّة أو ما بعدها». (١٢)

كانت هذه أهمّ المؤاخذات والإشكالات المطروحة برأي الاستاذ علىٰ فكرة (العقلانية المفرطة) وقبل الخوض في البحث المفصَّل لها نرىٰ من الضروري توضيح موضوعٍ مهمٍّ وهو:

ان نقد التفكير العقلانيّ المفرط لا يعني ـ مطلقاً ـ التقليل من (قيمة العقل والفكر) ولا التدبير والتفكير الصائبَين. بل إنَّ محاولتنا منصبَّة علىٰ تشخيص (طريقة التفكير والتعقُّل الصحيح) وتبيان (آفات العقل وانحرافاته) عن مسيره الأصلي والموصل للتكامل، ليتَّضح المقصود الواقعي والمطلوب لـ «التعقل»، كلُّ ذلك طبقاً لآراء **الشهيد المطهّري** القيّمة ونظراته الصائبة.

إن القرآن الكريم يؤكِّد في العديد من الآيات أهمِّية التعقُّل والتفكير الصائب، وفي هذا المضمار فإنَّ تكرار ألفاظ مثل (التدبّر) و (التعقُّل) و (التفكُّر) في الكثير من الآيات الشريفة يُعتَبر في حدِّ ذاته دليلاً علىٰ أهمِّية الفكر والعقل.

كما أنَّ هناك جملة من أحاديث المعصومين (عليهم السلام) تؤكِّد بقوَّة أهميَّة العقل والفكر، وأساساً فانَّ العديد من الروايات تورد (العقل) مقترناً بـ

---

١٢ ـ المصدر نفسه/ص١٧٥.

(الأنبياء) وتطرحه بإعتباره حجّة ودليلاً.

ولا تخلو الاشارة إلى بعض هذه الأحاديث الواردة في هذا المجال، من الفائدة. في كتاب أُصول الكافي ــ وهو سِفْرٌ جليل ــ باب تحت عنوان (كتاب العقل والجهل) انطوى على أهمّية العقل والفكر وقيمتها، وذمّ الجهل والغباء بشدّة. ومن جملة أحاديث هذا الباب:

١ــ ابو عبدالله الأشعري، عن بعض أصحابنا رفعه، عن هشام بن الحكم قال: قال لي ابو الحسن موسى بن جعفر (ع):

(يا هشام:

إنّ الله ــ تبارك وتعالى ــ أكمل للناس الحجج بالعقول).

٢ــ علي بن محمد، عن سهل بن زياد، عن محمد بن سليمان، عن علي بن ابراهيم، عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله (ع) قال:

(حجّة الله على العباد النبيُّ ، والحجّة فيما بين العباد وبين الله العقل).

٣ــ علي بن محمد، عن أحمد بن محمد بن خالد، عن أبيه، عن بعض أصحابنا عن أبي عبدالله (ع) قال:

(ليس بين الإيمان والكفر إلّا قلّة العقل).

وعلى أية حال، فلا توجد أدنى شبهة حول أهمّية العقل وضرورة الفكر، وكلُّ ما في الأمر هو البحث في دائرة عمل العقل، وكيفيّة ارتباطه بالوحي، وأُسلوب التعقُّل والفكر بحيث يؤدّي إلى النتيجة المطلوبة منه، ولا ينجرُّ الانسان إلى الضلال، والآن لنبدأ في خوض البحث حول (العقلانية المفرطة).

وكما قلنا، فإنَّ المرحوم اقبال يُعدُّ من بين واضعي ومؤسّسي فكرة إحلال العقل وأصالته في قبال أصالة للوحي. إنه يقول في كتابه (احياء الفكر الديني في الاسلام) بعد أن يعتبر الوحي نوعاً من انواع (الهداية الغريزية) والنبيَّ (جهاز التقاط) يتسلّم هذه الهداية بشكل غريزي وينقلها الى الناس، يقول:

«في مرحلة طفولة البشريَّة، تبدي الطاقة الروحية شيئاً اسمِّيه (الوعي الذاتي النبوي) وبواسطته يتمُّ الاقتصاد والتقشُّف في التفكير الفردي واختيار طريق الحياة عن طريق اتّباع الاوامر والأحكام والاختيارات والطرق العمليَّة الجاهزة والمهيَّئة بَيدَ أنه مع تولُّد العقل ومَلَكَة النقد فإنّه يقوم بتشكيل حياة مفيدة له، ويتوقّف نموُّ تلك الأشكال من التوعية الذاتيَّة التي كانت الطاقة الروحيَّة تجري بها في المرحلة الأسبق من التكامل البشري.

والانسان يخضع ــ أوّلاً ــ لأمر الشهوة والغريزة، والعقل الاستدلاليُّ ــ الّذي هو السبب ذاته لتسلطه على البيئة المحيطة به ــ يُعتَبر بنفسه تكاملاً وتطوُّراً، ولأنَّ العقل قد تولَّد فينبغي تقويته عن طريق الحيلولة دون أشكال المعرفة الأُخرىٰ (وهي الهدايات والمعارف الغريزيّة)». (١٣)

واجمالاً فإنَّ **اقبال** يعتقد أنه بعد تكامل العقل وتطوُّره ينبغي الحدُّ من المعارف والهدايات الغريزيَّة (التي من ضمنها الوحي) والتركيز علىٰ الهداية عن طريق العقل.

واستطراداً في البحث يعتقد **اقبال** بوجود مرحلتين أساسيَّتين للعالم البشري هما: مرحلة هداية الوحي، ومرحلة هداية العقل والتفكير في الطبيعة والتاريخ. وبرأيه فإن الرسول الاكرم (ص) بُعث بين هاتين المرحلة الاساسيَّتين أو بين العالم القديم والعالم الجديد.

فهو (ص) يعود من حيث مصدر إلهامه (الوحي) الىٰ العالم القديم، ومن حيث روح تعاليمه (الدعوة إلىٰ التعقُّل والتفكير في الطبيعة والتاريخ) مرتبط

١٣ــ احياء الفكر الديني في الاسلام/ص ١٤٥.

بالعالم الجديد.

ويعتقد **اقبال** أنَّ الخاتميَّة هي الحدّ الفاصل بين العالمين القديم والجديد. ومعنىٰ هذا الكلام أنَّ البشريَّة كانت في العالم القديم محتاجة إلىٰ الوحي، ولكنَّها في العالم الجديد (بعد الخاتميَّة) محتاجة إلىٰ التعقُّل في الطبيعة والتاريخ والاعتماد عليهما لهدايته، وأنَّ مرحلة هداية الوحي قد مضت. وهذا عين ما قاله في هذا الصدد:

«اذن ولأنّه قد تمَّ النظر إلىٰ الموضوع من هذه الزاوية ينبغي القول: إنّه يبدو أنَّ الرسول الاكرم يقف بين العالم القديم و الجديد، فما يتعلّق بمصدر إلهامه فإنَّه مرتبط بالعالم القديم، وما يخصّ روح إلهامه فهو مرتبط بالعالم الجديد. وإنَّ الحياة تكتشف فيه مصادر أُخرىٰ للمعرفة[14] تليق بخطّ سيره الجديد».[15]

وبعد أن يطرح الاستاذ **الشهيد المطهّري** آراء **اقبال** يبدأ في نقدها فيقول:

«هذه هي أركان فلسفة ختم النبوّة وأُصولها من وجهة نظر **العلّامة اقبال** ومع الأسف إنَّ هذه الفلسفة مرفوضة والكثير من أُصولها خاطئة. فأول مؤاخذة ترد عليها هو أنه لو كانت هذه الفلسفة صحيحة فلا تنتفي الحاجة لوحي جديد ونبيٍّ جديد فحسب، وإنَّما تنتفي الحاجة تماماً لهداية الوحي، لأنَّ هداية العقل التجريبيِّ ستقوم مقام هداية الوحي. ولو كانت هذه الفلسفة صحيحة فإنَّها ستكون فلسفةً لختم الديانة لا ختم النبوّة، وبناء علىٰ هذا الافتراض تصبح مهمّة الوحي

١٤ــ المعرفة عن طريق دراسة الطبيعة والتاريخ.

١٥ــ إحياء الفكر الديني في الإسلام/ص ١٤٦.

الاسلامي هي الاعلان عن انتهاء مرحلة الدين وبدء مرحلة العقل والعلم وحسب».[16]

ويستطرد (رضوان الله عليه):

(إنّ هذا التسويغ الخاطئ الذي طرحه إقبال لختم النبوّة قد أدّى إلى حصول تلك النتيجة الخاطئة ذاتها من أقواله، وللظنّ بأن مرحلة ختم النبوّة تعني مرحلة استقلال البشر عن الوحي، وأنّ حاجة البشر لإرشاد الانبياء وتربيتهم وتعليمهم انّما هي من نوع حاجة الطفل للمعلّم في الصفّ، فالطفل ينتقل في كلّ عام إلى صفٍّ أرقى ويتبدّل معلّمه. والإنسان كذلك انتقل من مرحلة إلى مرحلة أرقى وتبدّلت شريعته وقانونه. والطفل يصل إلى الصفّ الأخير النهائي ويحصل على شهادة التخرُّج، وبعد ذلك يصبح مستقلّاً عن المعلّم والاستاذ وينهمك في اجراء البحث والتحقيق. وهكذا الانسان في مرحلة الخاتميَّة يحصل على شهادة التخرُّج مع إعلان ختم النبوَّة، وحينذاك يبلغ مستوى الاستغناء عن الدراسة الكلاسيكيَّة وينهمك هو ــ مستقلاً ــ في إجراء البحوث والتحقيقات عبر دراسة الطبيعة والتاريخ وهذا هو معنى الاجتهاد.

إذن فختم النبوّة يعني بلوغ البشر مرحلة الاكتفاء الذاتي، ولاشك في أنّ مثل هذا التفسير لختم النبوّة خطأٌ بيّن».[17]

وهكذا يلاحَظ اهتمام **الاستاذ الشهيد المطهّري** بنقد معنى (الاجتهاد) من وجهة نظر **اقبال** . إذ مثل هذا الاجتهاد يختار من بين المصادر الاربَعة لـ (الاجتهاد الفقهي) مصدراً واحداً هو (العقل) ــ وحتى هذا فهو هنا العقل

١٦ــ مقدّمة للرؤية الكونية الإسلاميّة ــ الوحي والنبوّة/ص ١٧١.

١٧ــ المصدر نفسه/ص١٨٣.

حسب تعريف اقبال الخاص هو ـ ويسلّط عليه الضوء، ويهتمّ به، ويضيف إليه الطبيعة والتاريخ. إن هذا المعنىٰ للاجتهاد يُعَدُّ حذفاً لـ (الوحي والدين)، إذ أنه يتغافل عن جميع المصادر المرتبطة بالوحي الإلٰهي (الكتاب والسنّة) ويتجاهلها.

وكما لوحظ في كتابات إقبال فانَّ رأيه بخصوص (ختم النبوّة) ينطلق من زاوية أنَّ ختم النبوّة بمثابة بلوغ البشر مرحلة البلوغ العقليِّ والفكريِّ، وهو مرحلة من مراحل التكامل البشريِّ، ويتمُّ فيها الاستغناء عن الوحي والانبياء بعدئذ، ويستطيع البشر أن يطوي طريق التكامل اعتماداً علىٰ العقل ومصادر التاريخ والطبيعة.

يقول الأستاذ الشهيد في مقام نقد هذا الرأي حول (ختم النبوّة):

«إنَّ ختم النبوَّة ليس معناه انتفاء حاجة البشر إلىٰ التعاليم الإلٰهية والارشادات الواصلة عن طريق الوحي، أو لأن البشر لم تعد لديه ثمّة حاجة لهذه التعاليم نتيجة بلوغه ونضجه الفكري فقد اختتمت النبوّة. كلّا، ليس الامر هكذا مطلقاً، بل إنَّ الحاجة إلى الوحي الجديد ولتجديد النبوَّة هي التي انتفت لا الحاجة إلى الدين والتعاليم الإلٰهية».(١٨)

ويتحدث (قدّس سره) عن الأخطاء التي وقع فيها العلّامة إقبال في هذا الشأن فيقول:

«ليت العلّامة إقبال الذي لديه قراءات واطلاع ـ إلى حدٍّ ما ـ علىٰ كتابات العارفين، وكان معجباً بديوان المثنوي لمولانا جلال الدين الرومي؛(*) ليته قد تعمَّق في تلك الكتابات أكثر، وحصل

١٨ـ المصدر نفسه/ص١٦٨.

*ـ هو الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي ويسمّىٰ (مولانا) و (مولوي) وهو صاحب ديوان (مثنوي معنوي) الذي يحوي ٢٦ ألف بيت من الشعر، وتعتبر من أعظم ما قدّمه العقل الانساني العارف، ويتضمن شعره أمثالاً وآيات وأحاديث. أصله من (بلخ) وقد توفي عام ٦٧٢هـ في بلدة (قونية) بتركيا. ـ المترجم، نقلاً عن (المعجم الذهبي لـ د. محمد التونجي) ص ٥٥٠.

علىٰ ملاك أفضل لختم النبوّة. لقد نال العارفون مغزىٰ هذه النكتة وهي أن النبوّة انما خُتِمت لأنَّ جميع المراحل والمنازل الفرديَّة والاجتماعيَّة للإنسان والسبيل الذي ينبغي أن يسلكه المرء قد اكتُشف مرَّة واحدة، وبعد ذلك فإنَّ أيَّ إنسان مهما يدرك فان حدود ادراكه لن تتجاوز ذلك، وهو محكوم ــ اضطراراً ــ بالإتّباع، و (الخاتم من ختم المراتب بأسرها).

ان هذا لهو ملاك ختم النبوَّة وليس رشد العقل التجريبي للمجتمع، ولو تدبَّر **اقبال** في أسفار نفس الرجال الذين يحبّهم (مثل **مولانا جلال الدين الرومي**) وتعمّق فيها اكثر لعلم أن الوحي ليس من سنخ الغريزة بل هو روح وحياة أرقىٰ من الروح والحياة العقليَّة.

يقول مولانا المولوي:

ــ شتان ما بين غريزة الحمير والبقر،
وبين العقل والروح اللَّذين لدىٰ البشر
ــ بل ان هناك غير عقل المرء وروحه
توجد روح لدىٰ النبي والولي
ــ فالجسم ظاهر ومشهود، والروح خفية عن الإنظار
والجسم كالكُمِّ فيما الروح مثل اليد
ــ والعقل أخفىٰ من الروح
والاحساس يجد طريقه للروح أسرع
ــ وروح الوحي أخفى من العقل
فتلك مصدرها الغيب وهذا مستقرُّه الرأس
ــ فعقل **أحمد** لم يَخفَ علىٰ أحد
لكنَّ روح وحيه لم تدركها كلُّ النفوس
ــ روح الوحي أيضاً تختار المناسبين المؤهلين
والعقل لا يدركها لأنَّها عزت علىٰ الفهم
ــ إن الروح مصانة ومقدَّسة

مــــمَّ هـــــي مصـــانــــة؟ مــــن الــــذنــــب
ــلا الــتــنــجيم ولا الــكــهــانــة ولا الــرؤيــا
إنّما الــوحـــي هو الحـــقُّ، (والله أعلم بالصواب)». (١٩)

كانت هذه هي المؤاخذات المطروحة علىٰ آراء اقبال من وجهة نظر الشهيد المطهّري.

ومن الضروري أن نشير هنا إلى أنَّ نقد الشهيد المطهّري لأفكار العلّامة اقبال لا يعني تجاهل تأثير (البلوغ والرشد العقلي والفكري للبشر) في ختم النبوّة بل المقصود هو تفسير هذا العامل المؤثّر تفسيراً يصبُّ في خانة التعارض مع (اصالة الوحي).

وأساساً ما هي فلسفة ختم النبوّة؟

واذا كان (البلوغ العقلي للبشر) مؤثّراً في هذا الأمر ــ وهو كذلك طبعاً ــ فما هو شكل هذا التأثير وكيفيّته؟

الاجابة عن هذه الاسئلة يقوم بتقديمها الاستاذ نفسه في نفس الكتاب:

«... إن البلوغ والرشد الفكريَّ الاجتماعيَّ لدىٰ البشر له دور في ختم النبوّة، وذلك يبدو من عدّة جوانب:

١ــ إنّه حفظ كتابه السماويَّ من أيِّ تحريف.

٢ــ إنَّه بلغ مرحلة يتسلَّم فيها برنامجه التكامليَّ وينتفع به، لا مرحلة بعد أُخرىٰ، بل دفعة واحدة.

٣ــ إن بلوغه الفكريَّ ورشده الاجتماعيَّ يسمحان له بأن يحمل علىٰ عاتقه مهمَّة تبليغ الدين وإشاعته وإقامته، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهكذا زالت الحاجة إلى الانبياء المبلّغين شريعة المرسلين السابقين لهم، لأنَّ العلماء والصلحاء قد قاموا هم بسدّ هذه

١٩ــ مقدمة للرؤية الكونيّة الاسلاميّة ــ الوحي والنبوّة/ص ١٧٥و١٧٦ وقد تُرجمت الابيات بالمعنىٰ دون مراعاة الوزن والصياغة الشعرية.

الحاجة.

٤ــ إنه وصل مستوىً ــ من حيث الرشد الفكري ــ يجعله مؤهّلاً ومتمكّناً من تفسير عموميّات الوحي، في ضوء الاجتهاد، وتسويغها وإعادة كلّ أمر إلى أصله المرتبط به في الظروف المكانيَّة المختلفة، وفي الاوقات الزمنية المتغيّرة، وهذه العملية المهمّة ينهض بواجب إنجازها علماء الامة أيضاً». (٢٠)

وبغضّ النظر عن أفكار العلّامة اقبال، فان العديد من مثقفينا المسلمين في ايران ساروا في الطريق ذاته، وتعاملوا مع موضوع (المعجزة) من نفس الزاوية التي كان اقبال ينظر منها إلى (ختم النبوّة). ويوضح الاستاذ الشهيد تعامل هؤلاء المثقفين المسلمين مع موضوع (المعجزة) كما يلي:

«لقد اقتنع بعض الكتّاب المثقّفين المسلمين مؤخّراً بالرأي ذاته، وقدّموا لذلك تسويغاً على الشكل التالي وهو: صحيح ان المعجزة دليلٌ، بَيدَ أنها دليل إقناعي للإنسان غير البالغ وللطفل الذي يبحث عن الامور المثيرة للتّعجب والاستغراب والاشياء غير العاديّة، والانسان الراشد الناضج لا يهتم بمثل هذه الامور وإنّما يتعامل بالمنطق ويتعاطاه، ولأنَّ مرحلة النبيّ وزمانه كانا مرحلة العقل وزمن المنطق لا مرحلة الاوهام والتخيُّلات الذهنيّة فإنَّ نبيَّ الاسلام قد امتنع ــ باذن الله ــ عن الاستجابة لأيّ طلب بالاتيان بمعجزة غير القرآن». (٢١)

ثم يستشهد الاستاذ المطهري ببعض النصوص في هذا المضمار، ويكتب نقلاً عن أحد هذه النصوص:

«لقد كانت الاستعانة بالمعجزات والامور الخارقة للعادة أمراً

٢٠ــ المصدر نفسه/ص١٦٨.

٢١ــ المصدر نفسه/ص٢٨٠.

لابدَّ منه بالنسبة لأنبياءالسلف، فتوجيهاتهم وارشاداتهم المستندة إلىٰ الاستدلال العقلي كانت تلقىٰ صعوبات جمّة في طريقها إلى العقول في ذلك العصر، بل كان تحقيقها الهدف يبدو ضرباً من المحال...

وفي عصر ظهور نبيِّ الاسلام كان المجتمع البشري قد تجاوز مرحلة الطفولة، وأخذ يخطو في مرحلة البلوغ الفكري. وطفل الأمس الَّذي كان بحاجة إلىٰ أُمٍّ تمسك بيده وتعلِّمه طريقة المشي كان قد درج هو ماشياً معتمداً علىٰ قدميه، ومشغّلاً عقله...

ولهذا فلم تكُ من دون دليل مقاومة النبيِّ ازاء إصرار المنكرين والمعاندين وإلحاحهم عليه بأن يأتيهم بالمعجزات وخوارق العادات وهكذا كان أيضاً ثباته علىٰ برهنة أحقِّية دعوته اعتماداً علىٰ الاستدلال العقليِّ والتجريبيِّ والشواهد التاريخيَّة...

وبرغم كل ما كان من إصرار المنكرين وعنادهم فإنَّ نبيَّ الاسلام امتنع عن المجيء بمعاجز من النوع الذي جاء به أنبياء السلف ــ بأمر الله ــ وبقي يركّز علىٰ القرآن كمعجزة لن يكون لها أيُّ نظير. وان القرآن الذي هو معجزة خاتم الانبياء يُعتبر ــ في حدّ ذاته ــ دليلاً آخر على خاتميَّة الرسالة. وهو كتاب يحتوي علىٰ حقائق عالم الخلق والتعاليم والارشادات الحياتيَّة بكلِّ تناسق وفي جميع النواحي، وهو المعجزة اللائقة بالانسان الناضج البالغ والعاقل لا الطفل المتشبِّث بالأوهام والتخيُّلات الذهنيَّة ».[22]

وبعد ذلك ينقل الاستاذ الشهيد نموذجاً آخر في هذا الصدد فيقول:

«كان الجوُّ الذي يتنفَّس فيه الانسان مليئاً ــ علىٰ الدوام ــ بالخرافات والأوهام وخوارق العادة، ولم يكن يؤثِّر في مشاعره سوىٰ ما كان مخالفاً للعقل والاحساس...

٢٢ــ فلسفة التاريخ من وجهة نظر القرآن/ د. حبيب الله پيمان/ص ١٥و١٦.

ومن هنا نرىٰ إنه ليس الأنبياء وحدهم هم الّذين كانوا يتوسّلون بالامور الخارقة للعادة بل وحتى ملوك كلّ قوم وحكمائهم كانوا يتوسّلون بتلك الامور لتوجيه شؤونهم.

وفي هذا الصدد، كان يتوجّب علىٰ الانبياء ـ الذين أُرسيت دعائم رسالاتهم علىٰ الغيب ـ أن يلجأوا، اكثر من غيرهم، إلىٰ إظهار المعاجز، إذ كان اثر الاعجاز في ايمان الناس آنذاك يفوق تأثير المنطق والعلم والحقيقة المحسوسة والمسلَّم بها نظرياً.

اما قضية **محمّد** (ص) فكانت مستثناةً من هذه القاعدة... فالكتاب هو المعجزة الوحيدة التي يمكن رؤيتها دائماً، وكلّما مرَّ يومٌ كان إعجازه يتبلور أكثر فأكثر، وهو المعجزة الوحيدة التي يدرك حقيقة إعجازها بشكل أفضل كلُّ من كان له عقل أكبر وعلم أكثر، وكلُّ مجتمع اكثر تقدماً وتحضُّراً... هؤلاء هم الّذين يمكنهم أن يدركوا إعجازه بشكل أعمق وأدق. وهو المعجزة الوحيدة التي لا يقتصر الاعتقاد بها على من يؤمنون بالامور الغيبيَّة وحسب، بل يعترف بإعجازها كلُّ مفكّر وذي عقل. والكتاب هو المعجزة الوحيدة التي لم تكن للعوام وحدهم بل للمثقفين الواعين أيضاً.. وهو أيضاً المعجزة الوحيدة التي لم تستهدف ـ خلافاً لباقي المعجزات ـ إثارة إعجاب من يرونها والاستحواذ علىٰ مشاعرهم بإعجازه.

لقد كان يحاول **محمد (ص)** أن يستثير اهتمام الناس وينقله من الامور غير العادية والكرامات وخوارق العادة إلى القضايا العقليّة والعلميّة والطبيعيّة والاجتماعيّة والاخلاقيّة ويجعله منصبّاً على هذه الامور، ويحاول توجيه أحاسيسهم من العجائب والغرائب إلىٰ الحقائق والامور الواقعيّة، ولم يكن ذلك بالهدف السهل التحقيق ولا مسعىً عادياً، وخصوصاً في وسط أُناس لا يخضعون إلّا أمام كلِّ ماهو

غير طبيعي، وعلى أيدي أُناس يعتبر نفسه نبيّاً بين ظهرانيهم ». (٢٣)

واضافة الى البحث الأصلي ــ وهو موضوع المعجزة ــ يشاهد في العبارات سالفة الذكر نفيٌ لأيَّة معجزة ماعدا (القرآن) بالنسبة لنبي الاسلام.

وجواباً على هذا الإشكال يورد **الشهيد المطهّري** العديد من الأمثلة والنماذج الموجودة في القرآن الكريم نفسه وهي تدحض هذه النظريّة وتفنّدها.

ويشير سماحته (رض) إلى معجزة شقِّ القمر، ومعراج النبيِّ الأكرم (ص) وإخباره بالغيب في العديد من الحالات باعتبارها معاجز أُخرى لرسول الله غير القرآن.

واذا تجاوزنا هذه القضيَّة، نجد أن أصل هذه النظرية والأساس الّذي تقوم عليه هو موضوع تضييق نطاق اعتبار المعجزة كدليل وحصرها في مراحل معيَّنة من حياة البشر كانت تمر فيها الانسانية بمرحلة الطفولة، ولم يكن بإمكان الادلَّة العقليَّة والبراهين المنطقيَّة إقناعهم، وبالتالي فانَّ الانبياء لجأوا إلى أُسلوب الاعمال الخارقة للعادة وقاموا بإقناعهم وغرس الإيمان فيهم من خلالها.

بَيدَ أنَّ البشر حينما وصل مرحلة البلوغ والرشد عجزت حتى الاعمال الخارقة للعادة عن أن تحمل هذا البشر العاقل البالغ على الايمان، ولم تعد تُعتبر هذه الامور حجَّة لديه.

هذه النظرة إلى (المعجزة) تنبعث ــ على وجه الدقَّة ــ من نفس رأي **العلّامة اقبال** الذي قرأناه آنفاً في موضوع (ختم النبوّة). فأساس كلا النظريَّتين واحد وهو: اعطاء الأصالة للعقل البشري في مقابل الوحي والأدلَّة الغيبيَّة (كالمعجزة مثلاً). وكما أخضع الأُستاذ الشهيد رأي **اقبال** للنقد المنطقي في قضيَّة ختم النبوَّة فقد بادر إلى تسليط الضوء على موضوع المعجزة قائلاً:

«لاشكَّ في أنَّ للقرآن ميزة أساسية وهي: الدعوة إلى التدبُّر في عالم الطبيعة والشهادة ودراسته، باعتباره يزخر بالآيات الالٰهيَّة،

٢٣ــ معرفة الإسلام/د.علي شريعتي/ص ٥٠٢و٥٠٦.

بَيدَ أنَّ الدعوة إلى دراسة الطبيعة والتفكُّر فيها لا تعني بالضرورة صرف الأذهان عن الاهتمام بأيٍّ أمر غير طبيعي أو الدعوة الى عدم الاهتمام به. بل الأمر على العكس من ذلك، فالتفكُّر في الطبيعة ودراستها باعتبارها من آيات الله تعبِّر عن عملية العبور من الطبيعة وعَبْرها الى ماوراء الطبيعة. فالقرآن يرىٰ أنَّ طريق الغيب يمرُّ عبْر الشهادة، وسبيل ماوراء الطبيعة والامور المعقولة يمرُّ عبْر القضايا الحسيّة.

وتتجلّىٰ أهميَّة ما أنجزه **محمد** (ص) في أنه ومثلما كان يمارس دعوته في التاريخ والطبيعة والاجتماع ويحوِّل اناساً لا ينصاعون إلّا لكلِّ ما هو غير طبيعي ولا يؤمنون به؛ إلىٰ أُناس يخضعون للعقل والمنطق والعلم، فانَّه في الوقت نفسه يسعىٰ للرُّقي بأفكار أُناس يدَّعون الايمان بالعقل والمنطق ولا يخضعون إلّا لكلِّ ما هو غير طبيعي أو حسِّي؛ يسعىٰ لإطلاعهم على منطق أرقىٰ وأعلى والرقي بهم إليه.

إنَّ القرآن لا يريد ان يُحلَّ الاهتمام بالطبيعة والامور الحسيَّة محلَّ الاهتمام بما وراء الطبيعة والامور غير الحسيَّة وانَّما تكمن أهميَّة القرآن في أنه في نفس الوقت الذي يوجِّه الاهتمام نحو الطبيعة ــ او الشهادة حسب تعبير القرآن نفسه ــ فانه يجعل الايمان بالغيب في اول قائمة متبنَّياته وأُسسه فيقول:

«الم * ذٰلِكَ الكِتابُ لارَيبَ فِيهِ هُدَىً لِلمتَّقِين * الَّذِينَ يُؤمِنُون بِالغَيبِ...»

فكيف ــ اذن ــ يستهدف القرآن صرف اهتمام الناس عن الامور الغيبية في الوقت الذي يُعتَبر فيه هو ذاته من مصاديق تلك العجائب والغرائب التي تسمّىٰ بالمعجزات، وفي الوقت الذي ينطوي فيه هو نفسه علىٰ اكثر من مئة مقولة كلّها تندرج في هذا الاطار؟!

وانني لا أفهم معنىٰ هذه العبارة:

(ان الكتاب هو المعجزة الوحيدة التي لا يقتصر الاعتقاد بها علىٰ من يؤمنون بالامور الغيبيّة وحسب).

أي اعتقاد هو؟ هل هو الاعتقاد بكونه كتاباً وأنه ذو مضمون جيّد؟ أم أنه اعتقاد بأنَّه معجزة؟ إن الاعتقاد بأنه معجزة أمرٌ يعني الاعتقاد بأنَّه آية وبيِّنة إلٰهية وهو بالتالي مساوٍ للاعتقاد بالغيب، فكيف يمكن أن يكون هناك شخص واحد يوجد لديه ولا يوجد لديه ـ في آن واحد ـ اعتقاد بالغيب؟ ». [٢٤]

* النظرة العلميّة المحضة [*]

المظهر الآخر من مظاهر (الالتقاط) الذي حظي بالاهتمام في مؤلّفات **الشهيد المطهّري** هو التأثُّر المفرط بالعلم الذي نطلق عليه (العلمية المحضة) والمقصود من العلم هنا العلوم التجريبية، والمراد من (العلميَّة المحضة) التي نطرحها هنا باعتبارها فكرة التقاطيَّة متأثِّرة بالغرب: توجيه القضايا الاسلاميَّة وتسويغها بالعلم التجريبي.

وبعبارة أُخرى؛ فانَّ (النزعة العلمية المحضة) الناشئة أساساً من (النزعة الغربية) والتبعيَّة للغرب تعتبر محاولة لدراسة الالٰهيّات والمعارف الإسلاميَّة بالاسلوب الحسّي والتجريبي قام بها بعض المثقَّفين المسلمين.

وكما ذكرنا آنفاً، فإنَّ هذه الفكرة مبعثها (النزعة الغربيَّة) والتبعيَّة للغرب. و(النزعة الغربية) هنا تعني التأثُّر المفرط بالثقافة ونظام القيم الغربيَّة. ومبعث كون (العلمية المحضة) من أنماط النهج الالتقاطي هو مساعي هذا الاتجاه في (أخذ اسلوب فهم المعارف الدينيَّة والتعرُّف عليها ودراستها من نافذة الثقافة الغربيَّة

٢٤ـ مقدمة للرؤية الكونيَّة الاسلاميَّة ـ الوحي والنبوّة/ص ١٩٠و١٩٢.

* الدوغماتية (دكماتيسم) ـ فرنسية ـ: الاعتقاد واظهار العقيدة الراسخة.. وهي الفلسفة والنظرية المذهبية التي يعتقد أنصارها أنهم يستطيعون ادراك الامور المتعلّقة بما وراء الطبيعة وبيان حقائقها وتوضيحها بالاسلوب العلمي ـ قاموس الفارسية/د. حسنين/ص ٢٥٥/المترجم ـ.

ومنظارها).

ولقد قلنا فيما سلف من الحديث عن تعريف الالتقاط انه عبارة عن اقتباس قسم من نظريَّة او التقاط جزء من ثقافة وضمِّه الى نظريَّة او ثقافة أُخرىٰ (وهي هنا الاسلام).

كما قلنا أيضاً إنه اذا كان الجزء المقتَبَس ملتقَطاً من الغرب فهو (التقاط من النوع الغربي) واذا كان الجزء الملتقَط من الشرق فإنَّه (إلتقاط من النوع الشرقي).

وكما نعلم فإنَّ للاسلام أُسلوبه الخاص في مضمار دراسة المعارف الدينيَّة والأحكام وفلسفتها. فاذا ما وجدنا منهجاً فكريّاً يتَّخذ أُسلوب مدرسة فكريَّة أُخرىٰ او يقتبس طريقة ثقافة أُخرىٰ لغرض فهم مدرستنا ونظريتنا وإدراكها ودراستها بذلك الاسلوب وتلك الطريقة فانه يكون قد قام بتلفيق جزء غريب على هذه المدرسة وضمها إليها وهذا هو معنىٰ الالتقاط.

ويعالج الاستاذ **الشهيد المطهّري** هذا النوع من الالتقاط وينقدهُ في الجزء الخامس من (أُصول الفلسفة والمنهج الواقعي) ويبرهن علىٰ بطلانه علناً.

وقبل تناول هذا الفكر الالتقاطي وآراء **الشهيد المطهّري** بشأنه، من المناسب أن نُشير إلىٰ جذور هذا الفكر واسباب نفوذه وتسلُّله إلى العالم الاسلامي، كما وردت في كلمات الاستاذ نفسه. يقول (ره) في مقدمة الجزء الخامس من (اصول الفلسفة والمنهج الواقعي):

«لقد اتخذت مخالفة التفكير والتعمق في ما وراء الطبيعة طابعاً وشكلاً جديداً لها في عصرنا هذا، وهو طابع الفلسفة الحسّية، وكما نعلم فقد انتصر المنهج الحسي والاسلوب التجريبي في كشف الطبيعة ومعرفتها على المنهج القياسي. بعد هذا الانتصار وُجدت هذه الفكرة وهي أن المنهج القياسيَّ والتعقُّليَّ قد فقد اعتباره على كلِّ الصُّعد، والفلسفة الوحيدة التي بقي لها الاعتبار هي الفلسفة الحسِّية.

والنتيجة الحتميَّة لهذه النظريَّة هي أن الشكَّ يحيط بمجمل

الالٰهيّات ويكتنفها الغموض وهي غير قابلة للتحقيق، لكونها خارجة عن نطاق الحسّ والتجربة، بل إن بعض الناس أعلنوا إنكارهم لها جملةً وتفصيلاً. كان هذا هو الذي جرىٰ في العالم الغربي.

أمّا في العالم الإسلاميّ، فانَّ لهذا الامر جذوراً تعود إلىٰ حملة المعارضة التي شنها أهل الحديث (الاخباريون) ضدَّ أيّ تفكير وتعمُّق وتدبُّر، هذا من جهة.

ومن جهة أُخرىٰ فقد أدت النجاحات المتوالية التي أحرزها المنهج الحسيُّ في كشف الطبيعة ومعرفتها، وكذلك صعوبة التعمُّق في القضايا الفلسفيَّة وحلِّها، من جهة ثالثة، أدّيا إلى أن يستأثر هذا الاسلوب باهتمام الكتّاب المسلمين، والى تبلوُر نظريَّة تلفيقيَّة فيما بينهم تقوم على أساس أن التحقيق ممكن في الالٰهيّات، ولكنّه ينحصر ــ بالضرورة ــ في استخدام المنهج الحسّي والتجريبيّ الذي تمّ استخدامه على صعيد كشف الطبيعة ومعرفتها.

وقد ادّعت هٰذه الفئة أنَّ القرآن يرىٰ أنَّ طريق معرفة الله هو دراسة الطبيعة والمخلوقات والتدبُّر فيها باستخدام المنهج الحسّي، وأن أيَّ سبيل آخر غير هذا السبيل لا جدوىٰ فيه ولا فائدة منه، لأنَّ القرآن يصدع في آياته كلِّها بدعوة البشر الىٰ التدبُّر في مظاهر الطبيعة ــ بكلّ صراحة ــ وهو أمر لا يتسنّىٰ إلّا بالاسلوب الحسّي، وقد أُعتبر مفتاح فكّ رموز المبدأ والمعاد كامناً في هذا النوع من الدراسة والتدبُّر.

ويركّز **فريد وجدي** في كتاب (علىٰ أطلال المذهب المادي) و**السيد ابوالحسن الندوي** في (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) وكذلك مؤلّفو وكتّاب جماعة (الاخوان المسلمون) من امثال **سيد قطب** و**محمّد قطب** وغيرهما؛ يركّزون على هذه الفكرة ويروّجون لها، ويفنّدون الرأي المخالف لها.

يقول **الندوي** في كتابه (عبور المسلمين من الجاهليّة إلى

الاسلام) تحت عنوان (المُحكمات والبيِّنات في الالٰهيّات):

(لقدأطْلع الانبيـاء البشر علىٰ ذات الله وصفاته وبداية العالم ومآله، ومصير الانسان، ووضعوا معـلومات مجّانيـة في هـذا المضـمار تحت تصرُّف البشر، وبذلك فـقد كفوه مؤونة البـحث في هذه القضايا التي لا توجد بـداياتها ومـقـدماتها تحـت تصرُّفه لأنَّهـا من علـوم ماوراء الطبيعة والميتافيزيقيا.

لكنَّ الناس لم يدركوا قـيمة هذه النعمـة وأهميَّتها وانهمكوا في الـبـحث والتـفـحُّص في هذه القضايـا التي لا تـنتهي إلّا إلى الأماكن الغامضة والمظلمة).

ويُـعـتبر رأي أمثال **فـريـد وجدي والندوي** مـن بـاب الرجعة الحنبليّة، ولكنَّها من الطرازالحديث ومن النمط المقترن بالفلسفة الحسِّيَّة الغربيَّة». (٢٥)

واقتفىٰ اثر بعض المثـقَّفين المسلمين ومفكِّري الـعالم الاسلامي مفكّرون ايرانيون، وسـلكوا السبيـل ذاتـه، وبذلوا جهـوداً كـبيرة مستهدفين إقران المـفاهيم والـقضايا الـديـنيَّـة (رغـم أنها ممّـا وراء الطـبيـعـة) بتوجيهات العلـم الـتجريبي وتسويغات المنطق الحسي.

وتندرج في هـذا الاطـار كتـب مـن امـثـال (المطـهّـرات في الاسلام) و (العشـق والتـعبّـد) و (الـذرّةآللّامتـنـاهـية) و (الطريـق المطوي) و (الـتكـامل في القـرآن) وغيـرها، وهي تـعتبر مـن مصاديق مساعي اولـئـك الخائضـين في غمار (النزعة العـلميَّة المحضة) والتي أُلِّفت لغرض توجـيه القضايا الاسلاميَّة وتسويغها اعتماداً على المنهج الحسِّي والاسلوب التجريبي.

وعلى سبيل المـثال، فانَّ كـتـاب (الطريق المطوي) كان بصدد الـبرهنة علىٰ أُصول العقائد الاسلاميَّة كالوحي والتوحيد والنبوّة والمعاد وغيرها عبرالادلّة

٢٥ــ مقدمة الجزء الخامس من (أُصول الفلسفة والمذهب الواقعي)/ص١٨و١٩.

التجريبية والحسيَّة.

ويبحث **الاستاذ الشهيد المطهّري** استناداً إلى كتاب (الطريق المطوي) ذاته اسس هذا الفكر الالتقاطي وبُناه التحتيَّة، ومن ثمَّ يبادر إلى بيان بطلانه والمؤاخذات المطروحة حوله. وينقل الاستاذ مقطعاً من الكتاب المذكور آنفاً ورد فيه الادّعاء بأنَّ (طريق العالم التجريبي ينتهي والشخص العابد لله إلى مكان واحد وهو: الاذعان بوجود الله، وكلّما في الامر أنَّ ذلك يتمُّ في العالم التجريبي عن طريق الدراسة والبحث والتدبُّر في الطبيعة بالاسلوب الحسّي والتجريبي) ثم يقول الشهيد:

«إنَّ للدراسة الحسِّية للطبيعة، والتفكُّر في الارض والسماء وما فيهما؛ كيفيَّة وماهيَّة خاصَّة من وجهة نظر التوحيد ومعرفة الله، ولهما حدٌّ ورسالة معينة، فمن حيث الكيفيَّة يتمُّ إمعان النظر والتدقيق في النواميس الداخليَّة للاشياء لكي يتَّضح أن قوىٰ الطبيعة تعمل لتحقيق سلسلة من الأهداف، وأن هناك علاقة مباشرة بين الفاعلين والغايات.

أمّا حدودها ورسالتها فهي أن توضح لنا مخلوقيَّة الطبيعة ووجود قوّة أو قوىٰ شاعرة وحاكمة علىٰ الطبيعة، وليس لها رسالة او مهمّة اكثر من هذا، ولا يمكن أن يكون لها غير هذه المهمَّة. ولهذا قلنا إنَّ طريق دراسة الطبيعة ــ من وجهة نظر التوحيد ومعرفة الله ــ طريق لا تنتهي إلّا إلىٰ ما وراء الطبيعة.

أمّا النظام الفاعلي الذي تمسَّك به العلّامة مؤلف ذلك الكتاب فهو لم يقدّم أدنىٰ خدمة للتوحيد، ولم يكُ باستطاعته أن يقدّم مثل تلك الخدمة، فالعمل الوحيد الذي يمكن أن تقوم به العلوم ــ من وجهة نظر الانظمة الفاعلة ــ هو أنَّها تثبت ــ حسبما تقولون ــ أنَّ أيَّ موجود لم يوجد عبثاً او صدفة ولا مستقلّاً، بل إنَّه مرتبط ومستند إلىٰ موجود أو موجودات أُخرى. وهو يثبت كذلك أنَّ الموجودات هي

معلولات لتدخُّل أرباب أو موجودات غير مرئيَّة، والمشركون وغيرهم يُرجعون سبب الحوادث إليها، وبناء علىٰ ذلك فانّه يثبت أن ثمَّة نظاماً متقناً يقوم علىٰ العلَّة والمعلول يسود بين نفس الموجودات، وهذه السلسلة تبدأ من اللّانهاية وتنتهي إلىٰ اللّانهاية أيضاً.

ولكنْ ما علاقة كلِّ ذلك بالتوحيد؟ أفهل ينكر الماديُّون ــ الذين ينكرون وجود الله ــ وجود مثل هذا النظام المتقن القائم علىٰ أساس العلَّة والمعلول بهذا الشكل؟ وهل إنَّ الله الذي كان الانبياء يدعون إليه يعني مجموعة نظام العلَّة والمعلول اللّامتناهي؟!

إن الطبيعة حينما تعمل بشكل موحَّد ومتشابه في كلِّ مكان فإنَّ ذلك ليس إلّا دليلاً على الوحدة النوعيَّة لعناصر الطبيعة، وهو لا يدلُّ على وجود قوَّة موجود واحد أحد صمد، بسيط لا يقبل التجزئة، ثابت دائم، أزلي قاهر غالب.

هل هي مقبولة فكرة أن وجود موجود واحد أزلي، حيّ فعال، عليم قدير، مريد سميع بصير، مسيطر وقاهر للطبيعة وخالق لها، انما هي من بنات أفكار فلسفة اليونان وأنّ الانبياء لم يقولوا بذلك، وانما بُعثوا لدعوة البشر إلى الطبيعة ولإزالة الاعتقاد بالآلهة والأرواح والشياطين؟ ألا يُعدُّ ذلك من قبيل وضع درع الحماية الماديين؟!». (٢٦)

وبعد أن يقوم الاستاذ بدراسة وافية وبحث جامع في هذا الباب يستنتج ما يلي:

«على أية حال، فإنَّ الخدمة التي تقدِّمها العلوم للتوحيد عن طريق الأنظمة الغائيَّة التي استُند إليها في كتاب (الطريق المطوي) لم تحدث، أمّا عن طريق الانظمة الفاعلية التي استُند إليها فإنَّ العلوم لا

٢٦ــ المصدر نفسه/ص٢٢.

يمكنها أن تقدّم أيَّ خدمة لـلتوحيد، وإنّما الفلسفة هي التي باستطاعتها أن تخدم عن هذا الطريق.

والحقيقة هي: أنّ الطريـق الذي طواه العلّامة مؤلّف كتاب (الطريق المطوي) ــ بكلّ صفـاء وإخلاص نيّـة ــ طريـق مـعوج غير ذي جـدوى ولا يـدع مجـالاً للاستدلال بـواسطـة النظام الغائي الذي اصطلح العلماء على تسميته بـ (طريق اتقان الصنع) اقتباساً من القرآن الكريم». (٢٧)

ان ما يشير إليه الاستاذ فيما مرّ آنـفاً كمؤاخذة وإشكال اساس يُؤخذ على (النزعة العلميَّة المحضة) عبارة عن عجز العلم التجريبي والاساليب الحسّية عن الاجابة عن مسائل مما وراء الطبيعة وعوالم الغيب.

إنّ المنطق التجـريبيَّ عاجز ــ بسبب ماهيَّـته التي يرتكز موضـوعها على المادة والطبـيعـة المحضة ــ عن توجيـه وتبيان الامور الـواقعة خارج نطاق مـوضوعه ودائرة بحثه، وإنَّ المنطـق الحسيَّ لا يمكنه إثبات مسألة لها علاقة بالغيب وما وراء الطبـيعـة، كما أنَّه غير قـادر على تـفـنـيد أمـثال هـذه المسـائل، ذلـك لأنَّ العلـوم التجريبيَّة لا يتجاوز نطاق عملها ــ في الاساس ــ المادَّة، وكلّ ما يقع خارج هذا النطاق فانه يخرج عن دائرة أُفق رؤية العلم التجريبي.

وعلى هذا الاساس، فإن كلاً من الماديين ــ الذين يحاولون تفنيد العقائد الـغيبيَّة والمتـعـلِّقة بما وراء الطبيـعـة ــ الموجودة في الاسلام وباقي الاديان، وذوي النظرة الالـتقاطيَّـة والاتجاه العلمي المحض اصحـاب النزعة العلمـية المجردة الذين يحاولون إثبات تـلك العقائـد والمعارف عبر استخـدام هذه العلوم: كـلاهما عـلى خطأ.

ويمـكـن مشاهدة قصور المنطـق الحسّي في بحـث اثبات وجود الله، الذي ورد ضـمن كـتاب (الطـريق المطـوي). وهذه بعض عـبارات الـكـتـاب المذكور

٢٧ــ المصدر نفسه/ص٢٣.

آنفاً:

(إنَّ الإشكال الذي ينطوي عليه العلماء غير المؤمنين بالله هو انهم يقولون: كيف يمكننا أن نؤمن بمن لا نعرفه ولا نستطيع وصفه؟ فضلاً عن ذلك، فاننا حينما نؤمن بالله فعلينا أن نبحث في انه من أين أتى؟ وكيف وُجِد؟ اذن فباعتبار أن هذه المسألة لا يمكن حلُّها وان النقطة المجهولة فيها تنكفئ مرحلة إلى الوراء، فمن الأفضل أن نجرَّ أنفسنا عن تجاوز حدود الموجودات المحسوسة في الطبيعة وألّا نتحدث ــ في الحال الحاضر ــ عن قضيَّة وجود الله وعدمه.

وجواباً لما يطرحه هؤلاء السادة ينبغي القول:

أولاً: إن أيَّ نبيٍّ لم يُرِد منّا (بل ولا حتىٰ الله نفسه) أن نعرف الله ــ كما هو حقاً ــ ونصفه، بل البديهي أيضاً أنهم منعوا من ذلك. فما نستطيع أن ندركه او نصفه لابدَّ من أن يكون من سنخنا ونوعنا نفسه، وهو ــ قطعاً ــ ليس الله. وبناءً على ذلك فعلينا ألّا نتوقع النجاح في الحصول على مثل هذه المعرفة.

ثانياً: حينما لا يختلف تأخّر المجهول عن تقدُّمه، فلماذا نصرُّ ــ وخلافاً للعادة المعمول بها في كل شيء وفي كل مكان والقائلة بأن لكل فعل فاعلاً ولكل نظم ناظماً ــ ونناقش مجادلين إلى هذا الحد ونبدي من جانبنا تكبُّراً وتجاهلاً (للحقائق)؟ وحينما نحترم القانون فلماذا لا نعتني بواضع القانون ولا نعبأ له ؟!).[28]

وبعد نقل الاستاذ الشهيد للعبارات آنفة الذكر يقول:

«عجباً! هل إن معنىٰ معرفة الله ــ التي ورد كلُّ هذا التأكيد بشأنها ــ هو أن نحمل مثل هذا التصوُّر المبهم والقاصر حول الله؟ وهل إنَّ معنىٰ أن لا نستطيع معرفة الله كما هو ونعجز عن الاحاطة بكنه

٢٨ــ الطريق المطوي/المهندس مهدي بازركان.

ذاته هو أن نصاب بالاعياء ونحن نرفع الخطوة الاولى في هذا الاتجاه إلى الحدّ الذي نعجز فيه عن الاجابة عن أبسط التساؤلات المتعلّقة بها وأسهلها؟ بل ونحاول أن نلقي بعبء عجزنا وننحي بلائمة قصورنا على عاتق الاسلام فنقول: إنَّ الاسلام حرّم ــ اساساً ــ التفكُّر والتوغُّل في اعماق مثل هذه المسائل!!

وبناء على ما ورد في الفقرة أعلاه فتىٰ ما وجّه لنا الماديُّون سؤالاً أو طرحوا إشكالاً ومؤاخذة حول الله علينا أن نرفع اكتافنا عالياً ونعقف حواجبنا ــ وفقاً لطريقة قدماء أهل الحديث الاخباريين ــ ثمَّ نقول: (السؤال بدعة) ولتقرّ أعين الحنابلة.

وهكذا، وبناء على المنطق السابق الذكر فانَّ أيَّ طريق آخر غير طريق العلوم الحسِّية والتجريبية باطل، والعمل الوحيد الذي تقوم به العلوم هو تعريفنا على نظام العلّة والمعلول اللامتناهي في العالم، ولن يبقىٰ ثمّة معنىً (للفاعل العام) و (الضابط الأصلي) لامور الكون.

وبناء على هذا المنطق فكل ما هو موجود انما هو الافعال والفاعلون الذين ينتظمون اثر بعضهم في سلك الزمان والمكان. ويصطفّون إلى جنب بعضهم الآخر، وما النظام والقانون إلّا الترتيب المنظّم للأفعال غير المتناهية على الفاعلين اللّامتناهين. وبناءً على هذا المنطق، فلن يبقى محلٌّ يُذكر للفاعل العام والصانع الرئيس الّذي ليس له ــ طبعاً ــ فاعل وصانع ». (٢٩)

هذا القصور والعجز المشهودان في الفكر الالتقاطي الهجين المتمثّل في التأثُّر بالاتجاه العلمي المجرّد والنزعة العلميّة المحضة، في مجال إثبات وجود الله يلاحظان كذلك في بقية مواضيع هذا الكتاب أيضاً، وهكذا الامر في الكتب

٢٩ــ مقدمة الجزء الخامس من (اصول الفلسفة والمنهج الواقعي).

الأُخرى التي تطرقت إلىٰ موضوع الوحي، والنبوّة، والمعاد وغيرها.

والواقع هو انه لغرض دراسة الامور الغيبيّة والداخلة في نطاق ما وراء الطبيعة وإثباتها ينبغي التوسُّل بأساليب أُخرىٰ أكثر متانة وملائمة كـ (الفلسفة). اذ يمكن عبر النظرة الفلسفيَّة بحث القضايا الاعتقاديَّة وتلك المندرجة في ما وراء الطبيعة.

ولقد عجز أصحاب المنهج الفكريّ الإلتقاطي من ذوي النظرة العلميَّة المحضة عن إثبات الامور الغيبيَّة بسبب (انكار الفلسفة) وبسبب (التأثُّر المطلق بالعلم والنظرة العلميَّة المحضة) ولجأوا الى طرح التسويغات الضعيفة والتوجيهات العجيبة في بعض الأحيان. يقول مؤلّف كتاب (الطريق المطوي) في جانب من كتابه بعد أن يذمَّ الفلسفة، ويطعن فيها، معتبراً أنَّ الطرق العقلية والفلسفة تؤدّي بالتالي إلىٰ التيه والضياع:

«ومع الأسف إنَّ علماءنا مازالوا حتىٰ الآن متمسّكين بهذه الامور، ولم ينخرطوا في سلك البحث في العلوم الطبيعيَّة، ولم ينهمكوا في الاتصال المباشر مع العالم».[٣٠]

ولهذا السبب فان الاستاذ الشهيد المطهري يتناول موضوع الحدود بين العلم والفلسفة فيقول:

«الحقيقة هي إن دراسة الطبيعة تقودنا إلىٰ اعقاب ما وراء الطبيعة وحدودها. وهو طريق آخره ينتهي عند مشارف ما وراء الطبيعة ويتوقَّف هناك، ولا يعطينا إلّا ملامح مبهمة ممّا وراء الطبيعة. اي أنَّ الحدَّ الأقصىٰ لنتائج دراسة الطبيعة هو أنها يمكن أن توضح لنا أنَّ الطبيعة مسخّرة ومغلوبة من قِبَل قوّة أو قوىٰ مديرة ومدبِّرة وشاعرة، أمّا أن تلك القوّة هل أتت من مكان ما أم لا؟ وهل هي أزليّة وأبدية؟ وهل هي واحدة أم كثيرة؟ اهي بسيطة أم مركَّبة؟ وهل تجمع صفات الكمال كلّها أم لا؟ وهل علمُها وقدرتُها متناهية

٣٠ـ الطريق المطوي/ص ٦٨ ـ الهامش.

أم لا؟ وهل صاحب تلك القوة قدُّوس وفي أعلى مستويات التنزيه وبعيد عن أي نقص وعيب أم لا؟ وهل إننا أينما ذهبنا وأينما نظرنا فنحن ننظر إليه؟ وهل هو الأول والآخر؟ وأمثال هذه الاسئلة؛ كلُّها لا تلقى لها جواباً.

وعلى أية حال، فانَّ الخدمة التي قدَّمتها العلوم للتوحيد كانت عن طريق الأنظمة الغائبة التي لم يجر الاستناد إليها في كتاب (الطريق المطوي). اما عن طريق الانظمة الفاعلة التي تم الاستناد إليها فيه فانَّ العلوم لن تتمكن من تقديم أية خدمة، والفلسفة لوحدها هي التي يمكنها خدمة التوحيد عن هذا الطريق». (٣١)

ومن الضروري التذكير بنقطة مهمة وهي إنَّ (النظرة العلميَّة المحضة) لا تقتصر على موضوع العقائد فحسب. وكما قلنا آنفاً، فإنَّ جذور هذا (الاتجاه العلمي الصرف) هو (النزعة الغربيَّة) والذيليَّة للغرب، وفقدان الهويَّة والذات في مقابل المظاهر الغربيَّة.

هذه (النزعة الغربيَّة) تتجلّى في مضمار العقائد والاسس الفكريَّة، على شكل فكر التقاطي هجين يتجسَّد في (النظرة العلميَّة المحضة)، وفي مجال السياسي والاجتماعي والاقتصادي تبدو متجسِّدةً في الاتجاه (الليبرالي). أي أنَّ هؤلاء السادة ذوي النظرة العلميَّة المحضة هم ليبراليّون في الوقت نفسه.

ومن باب المصادفة؛ ففي كتاب (الطريق المطوي) ذاته تتضح (نزعتهم الغربية) وذيليتهم له في المجال السياسي والاجتماعي كذلك، بشكل علني وجلي. ويمكن الاشارة إلى النموذج التالي على سبيل المثال:

«قبل سبع أو ثماني سنوات كنت أتجول بصحبة أحد الاصدقاء القدماء وهو شخص خدوم وواعٍ وملتزم، ولكنه ــ للاسف ــ كان يتكاسل ويتهاون في بعض الاعمال والآداب

٣١ــ مقدمة الجزء الخامس من أُصول الفلسفة و.../ص ٢٠و٢٣.

الدينية. ودار بيننا حديث تناول اوضاع الحياة والرخاء في الدول الاوربية الشمالية كالسويد والنرويج، وكذلك سويسرا إلى حدّما، وتطرقنا إلى مظاهر التقدم ومستوى الرفاهية والرخاء بين سكّانها وخصوصاً شيوع الاخلاق الحسنة وقلة بعض الاعمال المشينة هناك نسبياً، كالسرقة والظلم والتهتك وغيرها، ودهشنا لذلك كثيراً.

وقد برز هذا السؤال بشكل ضمني وهو أنه كيف تسود مثل هذه الاستقامة والطهارة وبالتالي الرخاء والسعادة في تلك الدول على الرغم من أنهم ليسوا من أهل القرآن وأتباعه، بل ولربما ليسوا ملتزمين ــ في الأعم الأغلب ــ حتى بآداب المسيحية وأحكامها؟ اذن فيمكن الاستنتاج بأنه يمكن أن يكون المجتمع سعيداً وذا أخلاق حميدة حتىٰ بدون الاعتقاد بالله والخوف من جهنّم.

والخلاصة إنَّ الحديث قد انتهىٰ إلىٰ منعطفات حرجة، واعترف بانني انزعجت من ذلك ولم املك جواباً مقنعاً اقدمه لصاحبي ولا لضميري. وهنا أريد أن اطرح امامكم الجواب عن ذلك...

أجلْ، فقد اعتمد البشر على العلم والسعي والجد فاهتدىٰ إلىٰ طريق السعادة من خلال العقل، ومن باب المصادفة فقد كان طريق السعادة هذا هو ذات الطريق الذي اشار إليه الانبياء». (٣٢)

إنَّ فقدان الهويّة والذات في مقابل الغرب وصل بهؤلاء إلىٰ مستوىٰ أنّهم اعتبروا المجتمع السويديَّ والمجتمع السويسريَّ ــ مع كلِّ ما فيهما من فساد وتحلُّل أخلاقي وإنساني ــ (نموذجاً للأخلاق الحميدة والمستساغة) و (أنهما يخلوان من الاعمال المشينة) ويدّعون ــ بكل احساس بالحقارة والخيبة والانكسار ــ أن سكان تلك البلدان سلكوا الطريق الذي أرشد الانبياءُ إليه البشر، باستخدام العقل والمعرفة والسعي الحثيث!!

٣٢ــ الطريق المطوي/ص ١٢٤.

اذن فيمكن الاستنتاج ـ طبقاً لرأي هؤلاء ـ بأنّه لا حاجة مطلقاً للدين والوحي، بل يمكن تحقيق المجتمع المثالي اعتماداً علىٰ العلم والمعرفة!!

ويمكن استنباط نقطة أُخرىٰ من هذه الرؤية الليبرالية، وهي وصول اثنتين من الرؤى الالتقاطية إلىٰ نتيجة واحدة وهي؛ نفي أصالة الوحي ومحوريّته، فالرؤية الالتقاطيّة الاولىٰ كانت (العقلانية المفرطة) وقد تمَّ بحثها سابقاً، والرؤية الالتقاطية الثانية هي (النظرة العلمية المحضة) او الاتجاه العلمي الصرف وقد بحثنا فيها للتو.

في هاتين الرؤيتين كلتيهما تُنفىٰ (اصالة الوحي) مع فرق أن الرؤية الاولىٰ تُحل (العقل البشري) محلَّ الوحي، والرؤية الثانية تُحل (العلم التجريبي) محلّه. واجتماع كلتا الرؤيتين والتقاؤهما مع بعضهما الآخر يثبت أن كلتيهما تتفرع من أصل واحد وهو (النزعة الغربية) والذيلية للغرب.

***الرؤىٰ الماديّة:**

قلنا فيما سبق إنَّ أحد أنماط الالتقاط هو (الالتقاط الخفي) الذي يعني التأثُّر الكبير بآراء المذاهب والمدارس الأجنبية، وبعبارة أُخرى: إنه في هذا النوع من الالتقاط لا يتمُّ اقتباس جزء أو جانب من المدارس الفكريّة الاجنبيّة وضمُّه إلى المدرسة موضع البحث بشكل علني وصريح، وانما تؤخذ النظرة الاجمالية والروح العامة السائدة في مدرسة فكرية أجنبية ـ عن وعي او عن غير وعي ـ ثمَّ يتمُّ النظر إلىٰ جميع القضايا الدينية والالٰهيّة من منظار تلك المدرسة الفكريّة، وتجري دراسة هذه القضايا وتحليلها طبقاً لرؤية المدرسة الفكريّة الأجنبية.

كما قلنا آنفاً إن أخطر انماط الالتقاط هو هذا النمط بالذات، والذي يمكن أن نطلق عليه تسمية (الكفر المتبرقع بلباس الدين).

ونحاول في ما يلي أن نعالج بعض الموضوعات الدينية التي حُلِّلت من خلال الرؤى المادية ونُظِر إليها عبر المنظار المادي، من وجهة نظر **الشهيد المطهّري**.

ومن جملة المواضيع التي قام ببحثها وتحليلها بعض المثقّفين المسلمين تحت

تأثير المدارس الماركسيَّة ــ الاشتراكية، وأبدوا وجهات نظرهم بشأنها من خلال المنظار المادي؛ اخترنا عدداً من المواضيع التي سلَّطت الضوء عليها مؤلفات **الشهيد المطهَّري**، وسنقوم بايرادها فيما يلي:

النظرة المادية للمجتمع والتاريخ

مثلما نعرف فانَّ المنطق الماركسيَّ ــ فيما يخص المجتمع والتاريخ ــ يقوم على أساس (المادية التاريخية) بتحليل التبدُّلات الاجتماعية ومسيرة التطوُّر التاريخي طبقاً للمعايير الماديَّة والاقتصاديَّة، ويدَّعي واضعوه أن الحتمية المادية هو السائد على التاريخ وتطوُّر المجتمعات.

ويعتبر تطوُّر وسائل الارضيَّة الأساس لهذه التبُّدلات، وأنَّ التاريخ يمرُّ ــ منذ نشوء المجتمعات الانسانية حتى نهاية الحياة البشرية ــ بخمس مراحل بشكل جبري ومحتّم:

١ــ المرحلة المشاعية:

وتعني المجتمع الاشتراكيَّ البسيط والابتدائي، والذي كان في بداية الحياة الاجتماعية للبشر. في هذه المرحلة، كانت وسائل الانتاج بسيطة وفي غاية البساطة، ولم تكن الملكية الفرديَّة قد ظهرت بعدُ، وكان الانسان يحيا حياة اشتراكية في جميع الشؤون. ونظراً لفقدان الملكية الخاصة فإنَّ الطبقات لم تكن موجودة أيضاً.

٢ــ مرحلة الرق والاستعباد:

مع تطور وسائل الانتاج وظهور فائض فيه، ونتيجة لقيام الملكية الفردية تظهر الطبقات في المجتمع. فالقلَّة الذين اصبحوا يملكون وسائل الانتاج قاموا باستخدام الافراد الآخرين واستعبادهم واستغلالهم. وفي هذه المرحلة تقوم في المجتمع طبقتان: طبقة العبيد، وطبقة المستعبِدين.

٣ــ مرحلة الاقطاع:

إثر التطوُّر الحتمي لوسائل الانتاج وظهور الزراعة يتطوَّر مجتمع الرِّق

والعبيد إلىٰ مجتمع إقطاعي. وتستمرُّ العلاقات الطبقيَّة كما كانت عليه في المجتمع السابق، بَيْدَ أنَّ الفلّاح يحلُّ في هذه المرحلة محلَّ العبد، ويشغل الاقطاعي ومالك الارض محلَّ المستعبِد.

٤ــ مرحلة الرأسمالية:

مع ظهور الآلة والمكننة التي هي حصيلة للتطور الحتمي والمعقد لوسائل الانتاج، تبدأ الصناعة في الظهور، فتبرز طبقة العمّال وطبقة الرأسماليين. ويستمرُّ الصراع الطبقي الذي كان موجوداً ولكنَّه يكون هذه المرَّة بين العامل والرأسمالي.

٥ــ مرحلة الاشتراكية / الشيوعية:

وتُعتبر هذه المرحلة إفرازاً للصراع الطبقي في المجتمع الرأسمالي. فنتيجة لتصاعد الصراع الطبقي في ظل الرأسماليَّة تتمرَّد الطبقة العاملة على الطبقة الرأسماليَّة، وبعد أن تلغي العلاقات الرأسماليَّة السائدة تصبح الطبقة العاملة هي الحاكمة، وبذلك يقوم المجتمع الاشتراكي الذي يعني حاكميَّة الطبقة العاملة.

وطبعاً، فإنَّ الملكيَّة الخاصَّة لم تكن قد زالت تماماً في هذه المرحلة، بل إنَّ هذا المجتمع يُعدُّ الارضيَّة اللّازمة لقيام المجتمع الشيوعي الذي تُلغى فيه الملكيَّة تماماً، وتقوم كلُّ العلاقات والروابط علىٰ أساس الاشتراكيَّة المطلقة.

وباختصار: فانَّ الماديَّة التاريخيَّة ترىٰ أنَّه علىٰ طول التاريخ توجد في كلِّ المجتمعات طبقتان هما: الطبقة المستغِلَّة (بكسر الغين) والطبقة المستغَلَّة (بفتح الغين)، وهاتان الطبقتان يتغيَّر شكلهما في كلِّ مرحلة، وان الاقتصاد ــ وبالتحديد وسائل الانتاج ــ هو العامل الاساس والمحرّك الرئيس لتطوُّر المجتمعات وتغيُّرها، كما أنّها تعتبر الحتميَّة الماديَّة هي السائدة والمسيطرة علىٰ مسيرة تغيير المجتمعات.

والآن نتناول بالبحث تأثير نظريَّة الماديَّة التاريخيَّة وتأثير آرائها في مجال تحليل الفلسفة والتاريخ والمجتمع علىٰ عدد من المثقَّفين المسلمين. وعلى الرغم من

أنَّ هؤلاء المثقَّفين يحاولون شحن مواضيعهم بالآيات والروايات والحوادث التاريخية، إلّا أنَّ وراء هذه الظواهر والتوجيهات الدينيَّة تختفي تحليلات ماديَّة يمكن تشخيصها وفرزها جيّداً.

ويوجد هذا النوع من الالتقاط في ايران منذ سنين كثيرة خلت، كما أن الاستاذ الشهيد يذكر مصاديق لهذا النوع من الالتقاط من بين أفكار المثقفين المسلمين العرب أيضاً، ويمكننا أن نشاهد حتى في هذا اليوم آثار وترسّبات هذه الافكار في بعض الآراء والافكار القائمة. ويعكس وجود هذه الترسُّبات ــ مع الاسف ــ عمق تسلُّل ونفوذ النظريّات المرتكِزة إلى الماديَّة التاريخية في أفكار بعض مثقّفينا.

ولذلك فمن الضروري تسليط الضوء على هذا الموضوع والاهتمام به لكي ينتبه الذين وقعوا ــ دون وعي ومن حيث لا يشعرون ــ تحت تأثير تلك النظريّات الماديَّة فيحذروا من ذلك ويعيدوا النظر في أفكارهم على الأقل.

لقد أحسَّ **الاستاذ الشهيد المطهَّري** ــ لسنوات كثيرة قبل انتصار الثورة ــ بخطورة شيوع مثل هذه الرؤىٰ الماديَّة في أوساط المثقَّفين المسلمين، فقرع أجراس الخطر وحذَّر من ذلك في كتابيه (المجتمع والتاريخ) و (الدوافع نحو المادية).

ومن أجل دراسة (النظرة الماديَّة للمجتمع والتاريخ) بشكل مستفيض وجامع؛ نورد هنا مقتطفات من كتابه القيِّم (المجتمع والتاريخ). يقول الشهيد في مقام توضيحه لهذا النمط من التفكير:

«يدّعي بعض الاشخاص أن نظرة القرآن للمجتمع نظرة ثنائية، وانه يراه ذا قطبين. فالقرآن يرىٰ أن المجتمع ينقسم في المرتبة الاولىٰ إلىٰ: قطب مسيطر وحاكِم ومستغِل، وقطب محكوم ومستغَل ومقهور واقع في الأسر، فالقطب الحاكم هو الذي يُطلق عليه القرآن مصطلح (المستكبرين). والقطب المحكوم هو الَّذي يطلق عليه القرآن تسمية (المستضعَفين) أمّا سائر التقسيمات الواردة في القرآن الكريم

من قبيل (المؤمن والكافر، والموحّد والمشرك ، والصالح والفاسد) فانها تقسيمات فرعيّة. أي أن الاستكبار والاستغلال هو الذي يقود إلى الكفر والشرك والنفاق وأمثال ذلك، وفي مقابل ذلك ؛ الاستضعاف الذي ينتهي باتجاه الايمان والهجرة والجهاد والصلاح والاصلاح ونظائرها.

وبعبارة أخرى: إنّ جذور الأمور التي يعتبرها القرآن انحرافاً عقائدياً أو أخلاقياً او سلوكياً ومنشأها ــ برأي هؤلاء ــ نمط خاص من العلاقات الاقتصادية ألا وهو الاستغلال، كما أنَّ منشأ الأمور التي يؤكّدها القرآن ويؤيّدها ويندب إليها سواء كانت من النواحي العقائديّة والأخلاقيّة أو السلوكيّة هو (الخضوع للاستغلال).

ذلك إنَّ وجدان الانسان تابع طبعاً ــ وبشكل حتمي ــ لوضع حياته المادية، ومالم يحصل تغيير في وضع حياته الماديّة فلا يمكن تغيير الوضع الروحيّ والنفسيّ والأخلاقيّ لأيّ شعب. ومن هنا فإنَّ القرآن يعتبر النضال الاجتماعيَّ متجسِّداً على شكل صراع طبقيٍّ وأُصوليٍّ جذري صحيح. أي أنَّه يعطي للنضال الاجتماعيِّ الأولويَّة والأسبقيّة على النضال الإقتصاديِّ او الأخلاقيّ.

ووفقاً لما يراه القرآن فإنَّ الكافرين والمنافقين والمشركين والفاسدين والظالمين عادةً ما يظهرون من وسط الفئات التي يسمّيها القرآن بـ (المترفين) و (المسرفين) و (الملأ) و (الملوك) و (المستكبرين) وأمثالهم ولا يمكن أن يقوم هؤلاء الأشخاص من وسط الطبقة المقابلة مثلما أنَّ الانبياء والمرسلين والأئمَّة والشهداء والمجاهدين والمهاجرين والمؤمنين يظهرون من ثنايا الطبقة المستضعفة ولا يمكن أن يقوموا من الطبقة المقابلة ــ في نظر هذه الفئة ــ.

... ويتميز القطب المستكبر ــ بحكم استضعافه الآخرين وهيمنته على الإمتيازات الاجتماعية ــ بأنّه سوداويُّ النظرة،

تقليدي النهج، ميّال للراحة والدعة،بعكس القطب المستضعف فهو بصيرٌ واعٍ، رافضٌ للتقاليد السائدة، ثوريٌّ مبادرٌ، غايةٌ في الحيويَّة والنشاط، مثابرٌ دؤوب.

والخلاصة: إنّ هٰؤلاء الأشخاص يرون أنَّ القرآن يؤيِّد نظريَّة مفادها أن ما يصنع الانسان ويعيِّن الفئة التي ينتمي إليها، ويحدد اتجاه سيره، ويحدِّد منطلقاته الفكريَّة والأخلاقيَّة والدينيَّة والايديولوجيَّة؛ إنما هو وضعه المعاشي. ويُستَشَف من آيات القرآن ــ بشكل إجمالي ــ أنّه يبني تعاليمه علىٰ هذا الأساس.

ومن هنا فإنَّ الانتماء والارتباط بقطب خاص يُعدُّ ملاكاً ومقياساً لكلِّ شيء. وطبقاً لهذا الملاك والمقياس يمكن التعرف على مدى مصداقيَّة الادعاءات. فادّعاء المرء كونه مؤمناً ومصلحاً وقائداً او حتىٰ نبيّاً او إماماً يمكن تأييده او تكذيبه بعد تعريضه لهذا المحك». (٣٣)

وبعد أن يطرح الاستاذ الرؤية آنفة الذكر يبدأ بنقدها فيقول:

«إنّ هٰذه النظريّة تمثِّل ــ في الحقيقة ــ فهماً مادياً للانسان والمجتمع. ولاشكَّ في أن ثمة تركيزاً خاصاً في القرآن علىٰ القاعدة الإجتماعيَّة للأشخاص، بيْدَ أنَّ هذا هل يعنى أنَّ القرآن يسوِّغ كلَّ التقسيمات والاستقطابات ويوجِّهها وفقاً لهذا الملاك ؟! إننا نرىٰ أن هذا النوع من الفهم لا يتطابق وفهم الاسلام للانسان والعالم والمجتمع، وهو ناتج عن مطالعة سطحيَّة غير متعمِّقة في المفاهيم القرآنية». (٣٤)

وفي الكتاب نفسه، يتناول الاستاذ الشهيد موضوع البحث عن جذور

٣٣ــ المجتمع والتاريخ/ص ٢٧.

٣٤ــ المصدر نفسه/فصل: الإسلام والماديَّة التاريخيَّة/ص ١١٣.

هذا النمط من التفكير وسوابقه بين المسلمين فيقول:

«هل إنَّ الإسلام مؤيِّد للمادِّيَّة التاريخيَّة؟ وهل كان منطق القرآن في تناوله وتحليله القضايا التاريخيَّة قائماً على المادِّيَّة التاريخيَّة؟ إن ثمَّة فئةً تظنُّ وتدّعي أن هذه الفكرة قد وردت في القرآن الكريم قبل مالا يقل عن ألف سنة واعتُبرت قاعدة لتحليل التاريخ وتوجيهه.

وممَّن قال بذلك **الدكتور علي الوردي**، وهو من الاساتذة الشيعة في العراق، وله العديد من الكتب المثيرة للاهتمام، ومن بينها (منزلة العقل البشري). وربَّما كان **الوردي** أول من طرح هذه الفكرة.

وفي الوقت الحاضر، يُعتبر هذا النمط من التحليل التاريخي على لسان الإسلام —بين فئة من المؤلِّفين— نوعاً من أنواع الأفكار النيِّرة، بل وصار ذلك (موضة) لهم. بيَدَ أننا نَعتبر الاشخاص الذين يفكّرون بهذه الطريقة إمّا أنّهم لا يعرفون الإسلام جيِّداً أو لا يعرفون المادِّيَّة التاريخيَّة، او الاثنين معاً»[٣٥].

ولكن ما هي الآثار والتبعات التي سوف تترتَّب على رواج هذا النمط من التفكير فيما بين المسلمين؟ يجيب الاستاذ عن هذا السؤال بالقول:

«إن هذا النمط من التفكير حول المجتمع والتاريخ يعدُّ خطراً عظيماً جداً يهدِّد الثقافة والمعارف والفكر الإسلامي وخصوصاً إذا أُضفي عليه طابع اسلاميٌّ زائف وأصبح يُنظَر إليه على أنَّه ثقافة إسلاميَّة. ونرى من الضروري تناول المسائل التي أوجدت هذا التصوُّر الزائف أو من الممكن أن تكون منطلقاً لوجوده، والذي ينصُّ على أن (الاسلام يَعتبر الاقتصاد قاعدة للمجتمع وأساساً له) ويرى أنَّ التاريخ ذو هويَّة مادِّية»[٣٦].

٣٥ــ المصدر نفسه.

٣٦ــ المصدر نفسه/ص١١٤.

ويتحدث **الاستاذ الشهيد المطهّري** عن بقيّة النتائج والآثار المترتّبة على الرؤية سالفة الذكر فيقول:

«الآن وقد ظهرت إلىٰ حيّز الوجود مثل هذه الرؤية (القرآنيّة) ــ حسبما يدّعون ــ للتاريخ، فما هي النتيجة التي يمكن الحصول عليها في تحليل تاريخنا المعاصر؟ لقد بدأ هؤلاء السادة في قطف النتائج ــ من باب المثال، ولئلّا يفوت الآوان ــ اعتماداً على هذا الاساس (القرآني) كما يصطلحون عليه، ولذا فقد استفادوا من النهضة الحالية للعلماء على سبيل التجربة.

يقولون: لقد علّمنا القرآن أنَّ طلائع وقادة الثورات ينبغي أن يكونوا ــ بالضرورة ــ من الطبقة المستضعَفة، ومن جانب ثانٍ فاننا نرى اليوم أنَّ العلماء (الذين هم أحد الاعمدة الثلاثة لجهاز النّهب في التاريخ)(٣٧) قد غيّروا موقعهم الاجتماعي وصاروا ثوريين. فكيف نحل هذه المسألة؟

الامر سهل؛ فهناك ــ حتماً ــ امر مخفي عن الأنظار، إذ إنَّ السلطة الحاكمة حينما رأت حكمها معرّضاً للخطر أوعزت إلىٰ العلماء العملاء لها بأن يلعبوا دور الثوار، لكي تنقذ نفسها بهذه الوسيلة (!)

هذا ــ اذن ــ هو الاستنتاج الذي خرجت به هذه الرؤية الماركسيّة (عفواً؛ الرؤية القرآنيّة!). ومعروف اين تصبُّ فائدة هذا الاستنتاج وفي جيوب من تنتهي!»(٣٨).

وهكذا تلاحظ ــ عزيزي القارئ ــ أن **الاستاذ الشهيد المطهّري** يرىٰ أنَّ

٣٧ــ يعني الاستاذ بهذه العبارة عقيدة الذين يعتقدون أن للجهاز الناهب والظالم في التاريخ ثلاث شعب هي (التّبر والقهر والزور) ويعتبرون أن العلماء هم الصنف المقصود بالزور من تلك الأصناف الثلاث.

٣٨ــ المجتمع والتاريخ.

نتيجة هذه الرؤية للتاريخ تؤدي ــ في آخر الأمر ــ إلىٰ الانفصال والابتعاد عن العلماء، بل وحتى الوقوف أمامهم وجهاً لوجه. وهذا يمثل قرعاً لجرس الإنذار لجميع الذين ينظرون إلى المجتمع بالمنظار الطبقي او المادّي عن غير وعي ومن حيث لا يشعرون.

وعلىٰ أية حال، فقد أصبح معروفاً ــ إلىٰ هنا ــ ماذا تقول (المادية التاريخيَّة) وما هي (الرؤية الماديَّة نحو المجتمع والتاريخ) وما هي الأخطار والتبعات المترتّبة على هذه الرؤية والتفكير الالتقاطي.

ويتناول الاستاذ الشهيد في كتاب (المجتمع والتاريخ) الرؤية الماديَّة للمجتمع والتاريخ في ستَّة محاور فرعيَّة ثمَّ يقوم بنقدها كلاًّ على انفراد.

المحور الاول: تقسيم المجتمع إلىٰ قطبين (مادي ومعنوي) وتطابقهما في القرآن:

التوضيح: «اذا حقَّقنا النظر في محتوىٰ الآيات القرآنية التي طرحت القطبين الماديَّين، والقطبين المعنويين، وتأمَّلنا فيها لرأينا تطابقاً بين القطب المادي الأوّل والقطب المعنوي الأوّل، وكذلك بين القطبين المادي الثاني والقطب المعنوي الثاني.

أي أن الكافرين والمشركين والمنافقين والفاسقين هم أنفسهم الملأ والمستكبرون والمسرفون والمترفون والطواغيت وليسوا فئة أُخرىٰ،وليسوا فئة مكوّنة منهم ومن أشخاص آخرين.

كما أن المؤمنين والموحّدين والصالحين والمجاهدين هم أنفسهم المستضعفون والفقراء والمساكين والعبيد والمظلومون والمحرومون وليسوا فئة أُخرىٰ أو مجموعة مركَّبة من هؤلاء وأُناس غيرهم.

اذن، فليس في المجتمع اكثر من قطبين هما: القطب المنعَّم المرفّه والظالم والمستعمر، حيث تتكون منهم مجموعة الكفّار، وقطب المستضعفين الذي يشتمل علىٰ مجموعة المؤمنين...».[٣٩]

٣٩ــ المصدر نفسه/ص١٢٣.

وبعد أن يورد الاستاذ الشهيد هذه الفكرة يبدأ في الرد عليها فيقول:

«إن ما قيل من أنّ القرآن يقسم المجتمع إلىٰ قطبين ماديّين وقطبين معنويّين وأنّ هذين القطبين متطابقان؛ انما هو كذب محض. والقائلون بذلك يعتقدون أنّ الكافرين والمشركين والمنافقين والفاسقين والمفسدين هم أنفسهم الملأ والمستكبرون والجبّارون، كما يرون ـ في مقابل ذلك ـ أن المؤمنين والصالحين والشهداء هم أيضاً من طبقة المستضعفين والمحرومين، وأنّ انقسام الكافرين والمؤمنين إلىٰ جبهتين هو انعكاس للانقسام الجذري والأساس بين المستضعِفين (بكسر العين) والمستضعَفين (بفتحها) وهو اعتقاد خاطئ، إذ لا يُستفاد من القرآن وجود مثل هذا الانطباق بتاتاً، بل إن المستفاد منه هو عدم انطباقهما».(٤٠)

ويستدل الاستاذ الشهيد في تفنيده لمثل هذا الانطباق بأمثلة منها (مؤمن آل فرعون) و (سحرة فرعون) الذين كانوا من ضمن طبقة المستكبرين، بيّد أنّهم اتخذوا موقفاً معادياً لحكم فرعون بهديٍ من ضمائرهم وفطرتهم التوّاقة للحقّ، وكذلك (ثورة موسىٰ (ع)) الذي تربّى منذ طفولته في أحضان نظام فرعون وعائلته (المستكبرين طبعاً) لكنّه ثار ضد هذا النظام. وكذلك (نبينا محمد (ص)) الذي حصل علىٰ ثورة عظيمة ورفاهية جليّة بعد زواجه من خديجة الثرية، لكنه ـ مع ذلك ـ أعلن الثورة على الرأسماليين والمرابين وملاّكي العبيد وضدّ نظام عبادة الأصنام في مكّة، ويرىٰ أن هذه الأدلّة القرآنيّة أدلّة قاطعة علىٰ نفي الانطباق المدّعىٰ. ثم يخرج (رحمه الله) بنتيجة من هذا البحث، فيقول:

«مثلما أن المؤمنين والموحّدين وثوّار التوحيد لم يكونوا كلّهم من طبقة لمستضعفين، وكان الانبياء يعثرون علىٰ الفطر غير الملوثة او الأقل تلوّثاً من بين الأوساط الطبقات المستضعِفة (بكسر العين)

٤٠ـ المصدر نفسه/ص١٢٣.

وبالتالي يقومون بتحريضهم ضدّ أنفسهم (التوبة) او ضدّ طبقاتهم (الثورة) وكذلك لم تكن طبقة المستضعَفين كلّها في زمرة المؤمنين والثوريين. والقرآن الكريم نفسه يورد العديد من الحالات والأمثلة التي يذمُّ فيها بعض الجاميع من المستضعَفين ويُدرجهم في عداد الكفّار والمشمولين بالعذاب الالٰهي ». (٤١)

اذن فلا كلُّ المؤمنين هم طبقة المستضعَفين ولا كلُّ المستضعَفين من طبقة المؤمنين، والانطباق المزعوم هو مجرّد ادعاء واهٍ ودون جدوىٰ. وطبعاً لاشكَّ في أنَّ اكثريَّة الطبقة المؤمنة بالانبياء هم من الطبقة المستضعَفة أو علىٰ الأقل من الطبقة التي لم تتلوَّث أيديها باستضعاف الناس الآخرين، كما أنَّ اكثريَّة مخالفي الانبياء هم المستضعِفون (بكسر العين).

ذلك أنّه علىٰ الرغم من كون الفطرة الانسانيّة ــ التي تهيّئ الارضيّة والاساس لتقبُّل الرسالة الالٰهيّة ــ مشتركة وتوجَد لدىٰ الجميع لكنَّ الطبقة المسرفة والمترفة والمستضعِفة (بكسر العين) مبتلاة بعقبة كبيرة وهي تلوُّث الطبع وسوئه، واعتياد الوضع القائم والتطبُّع عليه. وعليها أن تجرَّ نفسها من تحت ركام التلوُّث لتتحرَّر منه، ولا يوفَّق في ذلك إلاّ أفراد قليلون.

أمّا طبقة المستضعَفين فلا توجد أمامها مثل هذه العقبات، بل إنها ــ وإضافة إلىٰ استجابتها لنداء فطرتها ــ تنال حقوقها المضيَّعة كذلك ،فهي بذلك تضرب عصفورين بحجر واحد ــ كما يقول المثل ــ. ولهذا فإنَّ اكثريَّة أتباع الانبياء هم من المستضعفين والاقلّية من غيرهم. أما مسألة الانطباق المذكورة سابقاً فهي مجرَّد زعم واهٍ». (٤٢)

٤١ــ النساء/٩٧، وابراهيم/٢١، وسبأ/٣١ــ٣٧، وغافر/٤٧ــ٥٠.

٤٢ــ المجتمع والتاريخ/ص ١٢٣.

المحور الثاني: ان (الناس) هم المخاطبين في القرآن والناس هم (الجماهير المحرومة):

التوضيح: «لقد وجّه القرآن الكريم خطابه لـ(الناس) و (الناس) هم جماهير الشعب والجمهور المحروم. ولذلك فإنَّ القرآن يعترف بالشعور الطبقي، والطبقة الوحيدة التي يراها القرآن صالحة لتقبُّل الدعوة الاسلاميَّة هي الجماهير المحرومة».(٤٣)

ثمّ يعلّق الاستاذ الشهيد علىٰ الفهم السابق لكلمة (الناس) فيقول:

«صحيح أنَّ القرآن وجّه خطابه لـ (الناس) ولكنَّ الناس هو جمع للانسان، وهو مفهوم يشمل الناس كافَّة، فليس هناك أيُّ معجم لغوي عربي يورد المعنىٰ المذكور آنفاً، ولا هو من المتعارف لدىٰ الناطقين بالعربية إن كلمة (الناس) تعني الجماهير المحرومة، كما لا تنطوي الكلمة علىٰ مفهوم تخصيص طبقة معيَّنة.

يقول القرآن الكريم:

«**وَللهِ عَلىٰ النّاسِ حِجُّ البَيتِ مَن آستَطَاعَ إلَيهِ سَبِيلاً**».

فالمقصود من الناس في الآية كلُّ إنسان يستطيع الحجّ. فهل يعني ذلك أنَّ الحج مُشرَّع على الجماهير المحرومة؟

كما أن عبارة «**ياأيها الناس**» التي تكررت في القرآن كثيراً لم يكن المقصود فيها الجماهير المحرومة بل عموم الناس. وإنّ عموميَّة خطابات القرآن نابعة من نظريَّة الفطرة الواردة في القرآن».(٤٤)

المحور الثالث: نهوض القادة والمصلحين والشهداء من بين الجماهير المحرومة فقط:

التوضيح: «إنَّ القرآن يعلن ـــ بصراحة ـــ أن القادة والمصلحين والمجاهدين والشهداء وبالتالي الانبياء إنّما ينهضون من بين جماهير الناس لا من بين

٤٣/٤٤ـــ المصدر نفسه.

الطبقة المرفّهة والمتمتّعة والمتنعّمة. يقول القرآن حول نبيِّ الإسلام (ص):

«هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّن رَسُولاً...»

وإن انبعاث قادة الحركات والثورات ــ بشكل حتمي ــ من بين الجماهير المحرومة هو بمعنى ضرورة تطابق المنطلق العقائدي والاجتماعي مع المنطلق الاقتصادي والطبقي». (٤٥)

ويجيب الاستاذ عن هذا الرأي قائلاً:

«وما قيل عن إن القرآن يدّعي أنَّ القادة والانبياء والطلائع الروّاد والشهداء ينهضون من بين المستضعَفين فقط هو خطأ آخر في النظرة لما احتواه القرآن. فالقرآن لم يقُل ذلك مطلقاً وإن الاستدلال بآية «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّن رَسُولاً...» التي زعموا أنَّها تدلُّ علىٰ نهوض القرآن من بين الأُمّة وأن الأُمَّة تعني الجماهير المحرومة هو استدلال مضحك.

فكلمة (الامّيّين) هي جمع لـ (الأُمّي) وهي تعني الشخص الذي لم يدرس، و (الامّي) منسوب لـ (الأُم) لا (الأُمَّة). علماً إنَّ (الامَّة) تعني المجتمع وهو خليط مكوّن من عدّة فئات، وأحياناً من عدة طبقات مختلفة، ولا تعني بأيِّ نحو من الأنحاء (جماهير الشعب المحرومة). (٤٦)

المحور الرابع: إن هدف بعثة الانبياء ورسالتهم هو إقامة العدل والقسط (وهي أهداف اقتصادية) والأهداف المعنويّة تُعتبر ذات أهمّية وأولويّة أقل:

التوضيح: «إن حقيقة حركة الانبياء في القرآن وتوجُّهاتهم الاجتماعية لم تكن تُعنى بالظواهر والقشور بل تهتمُّ بالاساس والعمق وتتوغّل في المضامين.

٤٥/٤٦ــ المصدر نفسه.

ويُستَنبَط من القرآن أنَّ هدف بعثة الانبياء ورسالتهم هو إقامة العدل والقسط وإرساء أُسس المساواة.

ولقد انطلق الانبياء دائماً من الأعماق ــ التي كانت هدفاً لبعثتهم ــ إلى الظواهر والسطح، ولم يبدأوا من السطح لينتهوا إلى الاعماق. فالسطوح تعني العقائد والإيمان وإصلاح الأخلاق والسلوكات، وهذه كانت الهدف الثاني للأنبياء وهم يبحثون عنها ويهتمّون بها بعد إصلاح الأعماق والأُسس.

لقد قال الرسول الاكرم (ص):

(من لا معاش له لا معاد له)

وهذه العبارة تعكس تقدُّم المعاش على المعاد، وتقدُّم الحياة الماديّة على الحياة المعنويّة، وكون الحياة المعنويّة محتاجة ومرتبطة بالحياة الماديّة، باعتبار أن الأُولى هي أُسُّ البناء وسطحه والثانية أساسه وعمقه.

كما قال النبي (ص):

(اللّهم بارك لنا في الخبز، لولا الخبز ما تصدّقنا ولا صلّينا).

وهذه العبارة تبيّن هي الأُخرى حاجة المعنويّات وارتباطها وسطحيّتها بالمقارنة مع الماديّات.

إنّ اكثريّة الناس تظنُّ أنَّ النشاط الوحيد الذي مارسه الأنبياء كان على صعيد العمل السطحي الفوقي، وأنهم كانوا بصدد حمل الناس على الايمان وإصلاح عقيدتهم وسلوكهم، ولم يكونوا يهتمون بالبنية التحتيّة لهم، أو أن الاعمال ذات الطبيعة العميقة كانت تأتي بالدرجة الثانية من الأهمية، او أنهم كانوا يريدون زرع الايمان والعقيدة في قلوب الناس، ويخالون أنَّ الناس اذا ما أصبحوا مؤمنين فانَّ كلَّ أُمورهم ستترتَّب وتجري بشكل تلقائي، وتُقام العدالة والمساواة، ويأتي المستغِلّون (بكسر الغين) بأنفسهم ويعطون حقوق

المحرومين والمستضعفين طوعاً وبأيديهم، وبإيجاز: إن الناس يظنون أنَّ الانبياء قد حقّقوا جميع أهدافهم بسلاح العقيدة والإيمان، وعلىٰ أتباعهم أن يسلكوا الطريق ذاته، والحقيقة إنَّ مثل هذا الظنَّ يُعدُّ خدعة واستغفالاً دبَّرته الطبقة المستثمِرة (بكسر الميم) والعلماء العملاء لها، ولفّقته وقامت بتلقينه للمجتمع من أجل إحباط عمل تعليمات الانبياء وإرشاداتهم حتىٰ أصبحت أكثريَّة الناس الساحقة تعتقد بمثل هذه الاوهام.

بينما الحقيقة إنَّ إسلوب الانبياء وطريقة عملهم كانت على العكس مما تتصوَّره اكثريَّة الناس. فالانبياء قاموا ـ أوّلاً ـ بإنقاذ المجتمع من الشِرك الاجتماعي والتميز واللّامساواة والاستضعاف والخضوع له، والتي هي جذور الشرك العقائدي والأخلاقي والسلوكي، وبعد ذلك بلغوا مرحلة التوحيد العقائدي والتقوىٰ الأخلاقيّة والعمليّة». (٤٧)

ويردُّ **الاستاذ المطهّري** على ذلك بالقول:

«الانبياء لا هم كما يتصوَّر المتصوفة؛ يصبّون كلَّ اهتمامهم لإصلاح الانسان من خلال تحريره داخلياً ـ أي يقطعون صلته بالاشياء ـ ولا هم مثلما تعتقد بعض المدارس الماديَّة؛ يرون اصلاح العلاقات الخارجيَّة وتقويمها كافيين لإصلاح الصلات الداخليَّة وتقويمها. فالقرآن الكريم يقول في آية واحد وفي آن واحد:

«تَعَالَوا إلىٰ كَلِمةٍ سَوَاءٍ بَينَنَا وَبَينَكُم أن لا نَعبُدَ إلّا اللهَ ولا نُشرِكَ بِهِ شَيئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعضُنَا بَعضاً أربَابَاً مِن دُونِ اللهِ»

ولكن الكلام هو في أنَّ الانبياء هل يبدأون عملهم من الداخل أم من الخارج؟ هل إنَّهم يبادرون إلىٰ إحداث ثورة داخليَّة

---

٤٧ ـ المصدر نفسه.

عن طريق زرع العقيدة والإيمان والإثارة المعنويَّة، ويثيرون الناس الذين حصلت لديهم ثورة توحيديَّة وفكريَّة وعاطفيَّة نحو إرساء أُسس التوحيد الاجتماعي والاصلاح الاجتماعي وإقامة العدل والقسط؟ أم انهم يحرِّكون الناس ـــ بادئ ذي بدء ـــ من خلال الضغط على **الأزرار** الماديَّة وجلب الانتباه إلىٰ حالات الحرمان والغبن **والاستضعاف**، وبعد التمكُّن من تهييج الناس في هذا الاتجاه يبادرون إلىٰ محو الشِّرك الاجتماعي والتمييز الاجتماعي وإزالتها وحينذاك يلتفتون إلىٰ موضوع الإيمان والعقيدة والأخلاق ويبدأون معالجتها؟

إن أدنىٰ دراسة وتعمُّق في أُسلوب الانبياء وأولياء الله تظهر أنَّ الانبياء ـــ وخلافاً للمصلحين ومدَّعي الاصلاح البشري ـــ يبدأون عملهم من الفكر والعقيدة والإيمان والهيجان المعنوي والعشق الالٰهيّ والتذكير بالمبدأ والمعاد».[٤٨]

المحور الخامس: كان منطق الانبياء ـــ دائماً ـــ منطق المستغَلِّين (بفتح الغين) ومنطق مخالفيهم منطق المستغِلّين ومبعث هذا الامر هو المنطلق الطبقي لكلٍّ من الانبياء ومخالفيهم:

التوضيح: «لقد جعل القرآن منطق مخالفي الانبياء على الضدِّ من منطق الانبياء وأتباعهم طوال التاريخ. ويبين القرآن بوضوح أنّ منطق المخالفين كان ـــ على الدوام ـــ منطق الابقاء علىٰ الوضع القائم ورفض التجديد والتغيير والتقيُّد بالسنن السائدة، والرجعية، وعلىٰ العكس من ذلك فإنَّ منطق الانبياء وأتباعهم هو التجديد وتغيير الأوضاع القائمة والخروج علىٰ السنن واستشراف المستقبل.

ويوضح القرآن أنَّ الفئة الاولىٰ تستخدم (بنظر علم الاجتماع) نفس المنطق الذي تستعمله ـــ في المجتمعات المنقسمة إلىٰ

---

٤٨ ـــ المصدر نفسه.

مستغِل ومستغَل ــ الطبقة المستغِلّة المستفيدة من الوضع القائم. وأن الانبياء وأتباعهم يستخدمون ذات المنطق الذي يستخدمه ــ بنظر علم الاجتماع ــ المتضرَّرون والمحرومون في التاريخ. وكأنَّ ثمة اهتماماً وعناية خاصة في القرآن بشرح منطق المخالفين الخاص ومنطق مؤيِّدي الأنبياء وأتباعهم الخاص أيضاً، بحيث يتجلّى ما هو منطق كلتا الفئتين.

وهذا لم يكن إلا لأنّ كلا المنطقين كانا يقفان بوجه أحدهما الآخر ــ مثلماهما الفئتان اللّتان تتبنيان كلا المنطقين ــ علىٰ امتداد التاريخ ومازالا كذلك، ولأنَّ القرآن يريد أن يضع معياراً ومقياساً لهذا اليوم من خلال إيضاح منطق المخالفين والمؤيِّدين وتبيانه، علىٰ امتداد التاريخ».(٤٩)

ثمَّ يردُّ **الاستاذ المطهّري** على ذلك فيقول:

«أنْ يتبنّىٰ مخالفوا الانبياء منطق المحافظة على الاوضاع القائمة ورفض التغيير فهذا أمر طبيعي. وطبعاً اذا أمكن الاستنباط من القرآن أن منطق مخالفي الانبياء كان دائماً هكذا ــ دون استثناء ــ حينذاك يمكن الاستنتاج أن مخالفي الانبياء كانوا كلُّهم من الطبقة المرفَّهة والمنعّمة والمستغِلّة ــ بكسر الغين ــ، بيَدَ أنَّ ما يمكن استنباطه من القرآن هو أنَّ هذا المنطق كان منطق زعماء المخالفين، والذين كانوا هم الملأ والمستكبرين وكان اولئك ــ الذين يسمّيهم ماركس مالكي السلع الماديَّة في المجتمع ــ يصدّرون هذه السلع الفكريَّة لباقي الناس.

ومن ناحية أُخرىٰ؛ حين يكون منطق الأنبياء منطق التحرُّك والتعقُّل وتجاهل السنن القائمة والتقاليد السائدة فهو الآخر

---

٤٩ ــ المصدر نفسه.

أمر طبيعي، بل وينبغي أن يكون هكذا، بَيدَ أنه ليس لأن أوضاع الحرمان والغبن الطبقي والاستضعاف هي التي صاغت ضمائرهم ووجدانهم بهذا الشكل أو أن هذا المنطق هو انعكاس حتمي وطبيعي للحرمان الذي عانوه، بل لأنهم وصلوا في إنسانيَّتهم ــ أي في المنطق والتعقُّل والعواطف الانسانية إلى مستوىٰ الرشد والكمال، وسوف نشير فيما بعد إلىٰ أن البشر وبقدر بلوغه الرشد والكمال في الانسانيَّة يقلُّ اعتماده وارتباطه بالبيئة الطبيعيَّة والاجتماعية والظروف الماديَّة، ويصل إلى مستوىٰ التحرُّر والاستقلال والتخلُّص من الأغلال. وأن منطق الانبياء كان يستوجب ألّا يتقيَّدوا بالسنن والعادات والتقاليد السائدة، وأن يحَرِّضوا الناس علىٰ الانعتاق من التقيُّد الحرفي بها والتقليد الاعمىٰ لها».(٥٠)

المحور السادس: إنَّ القرآن يعتقد ــ مثلما تعتقد المادية التاريخيَّة ــ أنَّ الصراع الطبقيَّ سيتمخَّض بالنتيجة عن انتصار طبقة المحرومين والمستضعفين:

التوضيح: «والأوضح من كلِّ شيء؛ التوجُّه القرآني في مضمار الصراع بين المستضعَفين والمستكبرين؛ حيث إنه يعتقد أنَّ الانتصار النهائيَّ في الصراع بين هاتين الفئتين هو من نصيب المستضعَفين ــ مثلما تبشِّر بذلك الماديَّة التاريخيَّة بناء على المنطق الديالكتيكي ــ. والقرآن في توجُّهه هذا إنّما يبين ــ في الحقيقة ــ اتجاه السير الحتمي والجبري للتاريخ، موضحاً أنَّ الطبقة التي تحمل في ذاتها الصفة الثوريَّة تنتصر ــ خلال صراعها المتواصل والحثيث ــ على الطبقة التي تنطوي في ذاتها على الصفة الرجعيَّة والميل نحو تقديس القديم من الامور بحكم موقعها الطبقي، ومن ثَمَّ فإنَّ فئة المستضعَفين تصبح وارثة

---

٥٠ ــ المصدر نفسه.

الأرض. يقول القرآن:

«وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذين استُضعِفوا في الأرضِ وَنجعَلَهُمْ أئِمَّةً وَنَجعَلَهُمُ الوارِثِينَ». (٥١)

ويردُّ **الاستاذ المطهّري** على ذلك فيقول:

«إنَّ ما قيل بشأن الاستضعاف غير مقبول هو الآخر. لماذا؟

أولاً؛ لأنَّ القرآن أوضح في آيات له أُخرىٰ ــ تتضمَّن بيان مجرىٰ التكامل التاريخي ــ مصير التاريخ ومآله، بكل صراحة، بصورة أُخرىٰ وشكل آخر، وتلك الآيات توضح ــ علىٰ افتراض أن مفادها هو ما ذُكِر ــ مغزىٰ تلك الآية ومضمونها، وتفسِّرها وتجعل تحقُّقها مشروطاً، وثانياً؛ إنَّ آية الاستضعاف آنفة الذكر لا تبيِّن أساساً ــ وخلافاً لما هو شائع ومتعارف ــ أيَّ قاعدة كلِّية وعامَّة، حتىٰ تكون بحاجة ــ في مضمار المقارنة والمقايسة بالآيات الأُخرىٰ التي وردت في هذا الصدد ــ إلىٰ تفسير وتوضيح او اشتراط. فهذه الآية مترابطة مع الآية التي سبقتها والآية التي تلتها، ومع الالتفات إلى تينك الآيتين يتَّضح أنَّ هذه الآية لم تكن بصدد تبيان قاعدة عامَّة وكلِّية بالشكل الذي ذُكِر». (٥٢)

وبعد أن يورد الاستاذ الشهيد **آية الله المطهّري** المقدّمة المذكورة آنفاً يطرح بحثاً مستفيضاً بشأن تفسير وتوضيح آية الاستضعاف **والاستخلاف** وبقيَّة الآيات التي لها علاقة بالموضوع، ثمَّ يستنتج أخيراً أنَّ التفسير الطبقيَّ والماديَّ لآية الاستضعاف تفسير باطل.

والىٰ هنا تمَّ ايضاح موضوع (الرؤية الماديَّة للمجتمع والتاريخ) من وجهة نظر الاستاذ المطهّري. ولكن ما هي الجذور الأصليَّة لظهور مثل هذه الأفكار في المجتمعات الاسلاميَّة (وخصوصاً بين المثقَّفين)؟ ولماذا وقع عدد من المثقَّفين

٥١/٥٢ ــ المصدر نفسه.

والمفكّرين المسلمين تحت تأثير التحليلات والآراء الماركسيَّة في دراسة فلسفة التاريخ والمجتمع؟ **الشهيد المطهّري** يذكر اثنين من الجذور الأصليَّة لميل بعض المثقَّفين المسلمين نحو النظرة الماديَّة للتاريخ هما:

١ــ الاقتناع بالماديَّة التاريخيَّة واعتبارها فكر الثورة والنضال.

٢ــ الفهم الخاطئ لتوجُّهات القرآن والاسلام القويَّة لصالح المستضعفين والمحرومين. ويوضح الاستاذ هٰذين الجذرين كما يلي:

(اعتقد انَّ السبب الرئيس لميل عدد من المثقَّفين المسلمين نحو الماديَّة التاريخيَّة يعود إلىٰ أمرين اثنين؛

أحدهما: أنهم ظنُّوا أنْ لو أرادوا أن يعتبروا الفكر الاسلامي فكراً ثوريّاً أو أنّهم لو أرادوا أن يكوّنوا للاسلام فكراً ثوريّاً فلا مناصّ من اللجوء إلىٰ الماديَّة التاريخيَّة.

هؤلاء المثقَّفون يظنُّون أنَّ السبيل الوحيد لكون فكرٍ ما فكراً ثوريّاً: أن يكون مرتبطاً بالطبقة المحرومة والمظلومة وأن يخصَّ هذه الطبقة، ويكون منبثقاً من بينها، وأن ينحاز إليها ويعمل لصالحها، وأن يكون موجِّهاً خطابه إليها فقط، وأن يكون قادته وهداته ودعاته الروّاد من بين أفراد هذه الطبقة، وأن تكون علاقة هذا الفكر مع بقيَّة الفئات والطبقات علاقة الخصومة والعداء والتناحر فقط وليس شيئاً آخر.

ويخال هؤلاء أنَّ طريق الفكر الثوري ينبغي أن ينتهي إلى البطن حتماً وأن كلَّ الثورات التاريخيّة الكبرىٰ وحتىٰ الثورات التي قادها أنبياء الله كانت ثورة البطن ومن أجل البطن... ولا يستطيع هؤلاء المفكّرون أن يتصوّروا أنه من أجل أن يتّصف فكرما بأنّه فكر ملتزم ومسؤول وهادف فليس من الضروري أن يكون منطلقاً من

الطبقة المحرومة والمظلومة.

وهؤلاء يحسبون أنه اذا كان هناك فكر جامع وعام فهو حتماً فكر محايد وغير منحاز ولا هادف، ولم يستطيعوا أن يتصوّرا أن النظرية والفكر الجامعين والشاملين ــ لكلٍّ الطبقات ــ اذا كان مصدرهما إلٰهيّاً وكان كلٌّ منهما موجّهاً للانسان ــ أي الفطرة الانسانية ــ فمن المستحيل أن يكون محايداً أو غير هادف ولا منحاز أو ليس ملتزماً او مسؤولاً. وان ما يخلق الالتزام والمسؤوليّة ليس الارتباط والتعلُّق بالطبقة المحرومة وانما الارتباط بالله وضمير الانسانيّة.

هذا أحد الجذور الأصليّة التي يعود إليها خطأ هؤلاء السادة فيما يخصُّ نظرتهم إلىٰ علاقة الاسلام بالثورة.

وثانيها: يخصُّ نظرتهم إلىٰ علاقة الإسلام مع توجُّهاته الاجتماعية، فقد شاهد هؤلاء المفكِّرون بوضوح أنَّ القرآن ينحاز بشدَّة ــ خلال تحليله التاريخي لنهضات الأنبياء ــ لصالح المستضعَفين، ومن ناحية أُخرىٰ فإنَّ مبدأ (التطابق بين التوجُّه والمنطلق) وبتعبير آخر؛ (التطابق بين القاعدة الاجتماعيّة والقاعدة العقائديّة والعمليّة) الذي هو أحد المبادئ الماركسيّة؛ يُعتَبر ــ برأي هؤلاء المثقّفين ــ مما لا يمكن المساس به او الشكُّ في صحّته وليس بوسعهم أن يتصوّروا ما يخالفه.

وبشكل عام فإنهم بدأوا يخوضون في مثل هذه الاستنتاجات من قبيل أنه بما أنَّ القرآن يَعتبر توجُّه النهضات المقدّسة والباعث علىٰ التقدم والتطوُّر هو لصالح المستضعفين ــ بشكل واضح ــ وأنها تستهدف إحقاق حقوقهم وتأمين حرّياتهم، فلذلك فإنَّ منطلق كلِّ النهضات المقدّسة والباعثة علىٰ التقدُّم والتطوُّر هي الطبقة المحرومة والمظلومة والمستضعَفة وفق المنظور القرآني، وبالتالي فإنَّ للتاريخ هويةً ماديةً واقتصاديةً ــ من وجهة نظر القرآن ــ وإن الاقتصاد يُعَدُّ هو

العنصر الأساس». (٥٣)

وحول طبيعة توجُّه الإسلام في المجالات الاجتماعيّة يكتب الاستاذ:

«إنَّ توجه الاسلام إنما هو نحو العدالة والمساواة والقسط، وبديهيٌّ أنَّ المستفيدين من هذا التوجُّه هم المحرومون والمستضعفون، والمتضرّرين من جرّاء هذا التوجُّه هم الناهبون والمستأثرون والمستغلّون. أي أنَّ الاسلام حتى حينما يريد تحقيق مصالح طبقة وإحقاق حقوقهم فإنَّ هدفه الأصليَّ الاساس هو تحقيق قيمة عليا وإرساء أساس مبدأ إنساني». (٥٤)

تفسير القرآن من خلال الرؤية المادية

وكما نعلم فإنَّ القرآن الكريم وضمن احتوائه مفاهيم ظاهريَّة فإنه ذو مفاهيم باطنيَّة أيضاً. وليست تلك المعاني الباطنيَّة وحدها هي التي تجعل فهم القرآن غير ميسور لكلِّ إنسان، بل إنَّ نفس الترابط والتلازم بين آياته الواحدة مع الأُخرىٰ، ووجود آيات من المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، والخاص والعام، والمطلق والمقيَّد و... الخ في الصورة الظاهريَّة للقرآن؛ يُعتَبر — إضافة لما سبق — عاملاً يجعل فهم هذا الكتاب السماوي أمراً غير متيسّر — وبسهولة — لكلِّ شخص.

وبغضِّ النظر عن فهم المعاني الظاهريَّة لمفردات آياته والذي يمكن لكلِّ شخص أن يحظىٰ بغيض من فيض منها، بَيدَ أنَّ الفهم العميق والاستفادة الصحيحة — وخصوصاً استنباط الأحكام والعقائد من ثنايا هذا الكتاب السامي الرفيع — بحاجة للتوفُّر علىٰ علوم ودراسات أوّلية كمقدّمة لذلك، بحيث إن عدم الاطلاع علىٰ هذه العلوم الاوّلية يجعل دراسة آيات القرآن الكريم وتفسيرها مقترناً بالخطأ والانحراف دائماً.

٥٣/ ٥٤ — المصدر نفسه.

بعض هذه العلوم آنفة الذكر عبارة عن: الأدب العربي، والتاريخ الاسلامي، والفقه، والفلسفة، والكلام، والمنطق وغيرها، إذ إنَّ كلَّ واحد من هذه العلوم والمعارف يساعد علىٰ الفهم الصحيح للقرآن من إحدىٰ الزوايا.

بل إنَّ القرآن الكريم وروايات الأئمة المعصومين (عليهم السلام) تذم ــ بشدّة ــ الذين يفقدون الكفاءات العلميَّة والمؤهلات الكافية الضروريَّة لفهم القرآن وتفسيره ولكنَّهم على الرغم من ذلك يبادرون إلىٰ الخوض في مضمار تفسير القرآن. ولقد شاهدنا طيلة العقود الماضية أنَّ هناك أفراداً وفئات تبادر إلىٰ شرح هذا الكتاب السماوي وتفسيره وتحليل مضامينه دون الالتفات إلىٰ الشروط والامور اللّازمة لتفسير القرآن الكريم، وبالتالي فانَّهم يحمِّلون القرآن قناعاتهم المسبقة وأحكامهم الجاهزة. بل إننا نشاهد اليوم أن ثمَّة افراداً تعوزهم الصلاحيَّة والكفاءة اللازمتان يقومون بتفسير القرآن الكريم من خلال آرائهم ووفقاً لميولهم ورغباتهم، ويُعتبر ذلك خطراً عظيماً يهدِّد كيان الاسلام.

والأخطر من (التفسير بالرأي) هو تفسير آيات القرآن الكريم وتحليلها وفق رؤيةٍ (ماديَّة وماركسيَّة) وهو ما شاهدناه منذ بدء تسلّل الفكر الماركسي إلىٰ عقول بعض المفكرين.

فهؤلاء المفكِّرون طفقوا ــ بعد اعتناقهم الأفكار الماركسيَّة والماديَّة ــ يفسّرون القرآن وحاولوا إضفاء صبغة اسلاميَّة علىٰ ما اقتبسوه من الآخرين من خلال مزجه بآيات القرآن الكريم، من أجل إكسابه وجهة صحيحة، وبعضهم يرفعون عقيرتهم بالتظاهر بخوض النضال والكفاح.

ولقد انتبه آية الله الاستاذ الشهيد **المطهري** منذ سنين عديدة قبل انتصار الثورة الاسلاميَّة إلى هذا الخطر الكبير جداً، وحذَّر منه في كتابه (الدوافع نحو المادية) قائلاً:

«إنَّ مطالعة المتون (التفسيريَّة!) ــ كما تسمَّى ــ التي نشرت خلال السنة او السنتين الأخيرتين لا تبقي أيَّ شك في أنَّ هناك مؤامرة ما يجري تدبيرها. وأنا لا أشكُّ في أنَّ مُناهِضي الدين

يقومون بحبك مثل هذه المؤامرة العظمى، لكنّ الشك واقع في مسألة هل إن كُتاب هذه الكراسات مغفّلون وتحرّكهم أيدٍ تعي ما تفعله من وراء الستار؟ أم أنَّ هؤلاء يقومون بما يفعلونه عن علمٍ وعمدٍ وقصدٍ فيطرحون مثل هذه التفاسير لكتاب مقدَّس لدىٰ سبعمئة مليون مسلم، ويعلمون حقيقة التفسيرات الماديَّة التي يكتبونها له». [٥٥]

وحول هذه التفاسير التي يمكن اعتبارها من نمط (الالتقاط الخفي) ـ لأنَّ هذه التفاسير اكتسبت ظاهراً قرآنياً لها، ولكنَّ مضامينها وفحواها وطبيعة نظرتها إلىٰ المفاهيم التي تنطوي عليها كلُّها مبنية علىٰ الماديَّة ـ يقول **الاستاذ الشهيد المطهّري:**

«بإيجاز، إن كلَّ الاسماء الواردة في هذا التفسير دينيَّة، وهي تسترعي الإنتباه للوهلة الاولىٰ، من قبيل: الله، والتوحيد، والنبوّة، والوحي، والملائكة، والآخرة، والجنَّة، وجهنّم، والنعيم، والعذاب، والتوكُّل، والصبر، والثورة... ولكن ما ان نصل إلىٰ عمق المفاهيم وكنه الافكار حتىٰ تغيب كلّها عن الأبصار وتحلّ محلها المعاني والمفاهيم الأُخرىٰ، ولا يبقىٰ منها شيء سوىٰ القوالب اللفظية». [٥٦]

وفي المقدمة ذاتها يشير الاستاذ إلىٰ بعض النماذج الواردة في تلك التفاسير ذات (الفكر الالتقاطي) الهجين وها نحن ننقل هنا ـ اسوةً بالاستاذ الشهيد ـ لقرّاء هذه السطور الأعزة بعض النماذج من تلك التفاسير من أجل أن يقفوا علىٰ طبيعة (الرؤية المادية) التي ينظر من خلالها اولئك الاشخاص الى آيات القرآن.

يقول الشهيد المطهّري:

«إنكم في تفسيركم للآية الكريمة **«الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِالغَيبِ ويُقيمونَ الصَّلاة وَمِمّا رَزَقناهُم**

---

٥٥ ـ الدوافع نحو المادية/ ص ٣٥.

٥٦ ـ المصدر نفسه/ ص ٤٩.

يُنفِقُونَ» تقولون بخصوص الايمان بالغيب: إنّ المفسِّرين يعتقدون أنَّ الغيب هو مالا يمكن رؤيته من قبيل: الله والملائكة... بينما نجد **ـأولاًـ** أنَّ الله والملائكة وأمثالهم ليسوا غيباً. **وثانياً** إنَّ قضيَّة الإيمان بالله قد تمَّ ذكرها ومضىٰ خلال التطرق إلىٰ عنوان (المتقين).

ثمَّ تفسِّرون الغيب والإيمان به هكذا:

(إن المقصود من الغيب المعهود والمعروف هو نفس المراحل الابتدائيَّة للنضج والرشد والثورة التوحيديَّة وزمن حصول التغييرات الكميّة).

وبايجاز؛ فانكم تدَّعون أنَّ المقصود من الايمان بالغيب الوارد في القرآن هو أن يعلم المؤمنون أنَّ للثورة مرحلة سرّية، وأن يجري النضال في تلك المرحلة سرّاً، وهذه المرحلة هي المرحلة التي يكون فيها النظام الحاكم مازال يملك السيطرة علىٰ الأوضاع، وتخوض فيها الثورة مرحلة النمو التدريجي، وتشهد خلالها تغييراً كمياً تدريجيّاً، ما يلبث أن يتحوّل إلىٰ تغيير كيفي نوعي علىٰ شكل دفعات (وهو ما يندرج في نطاق الفقرة الرابعة للديالكتيكية) وبالتالي يقوم النظام الجديد، وتنتقل الثورة من مرحلة الغيب إلىٰ مرحلة الشهادة». [٥٧]

وبعد ذلك، يطرح الاستاذ عدة أسئلة علىٰ اولئك النفر الذين كتبوا مثل هذه التفاسير:

«هل تعتقدون حقّاً في قرارة أنفسكم أنَّ هناك احتمالاً في أن يكون المقصود من الآية هو ما ذكرتموه؟ وهل كان ثوّار عصر الرسول (ص) امثال **سلمان وأبي ذرّ والمقداد** يفهمون الإيمان بالغيب بهذا الشكل؟ وهل كانوا يعتبرون الايمان بالغيب منتفياً في مرحلة (المدينة)؟!». [٥٨]

٥٧ـ المصدر نفسه/ ص ٤٤.

٥٨ـ المصدر نفسه/ ص ٤٤ و ٤٥.

إنكم أينما ورد ذكر الدنيا تترجمونه بعبارة (الحياة الواطئة) وأصل تلك الترجمة صحيح إلّا أنّكم تحصرونه في نطاق الحياة في ظلّ النظام (الرأسمالي) كما يسمّى، وان كلمة (الآخرة) التي تُرجمت على أنّها النظام الأفضل والأسمىٰ تجعلون المقصود بها هو (النظام الاشتراكي العادل) الذي سوف يقام بعد هذا النظام.

فهل تعتقدون ـــ حقّاً ـــ أنتم أنفسكم أنَّ المقصود من كلمة (الآخرة) الواردة في القرآن الكريم هو (النظام الأفضل والأسمىٰ) من الحياة في هذا العالم نفسه؟ وهل إنَّ المقصود بـ (الدنيا) هو الحياة في ظلّ النظام الرأسمالي والملكيّة الخاصَّة، والمراد بكلمة (الآخرة) هو الحياة في ظل النظام الاشتراكي المتكامل؟ أليس عملكم هذا جعل القرآن أُلعوبة بأيديكم؟ اذا كان الجواب بالسلب فماذا تسمّونه؟)». (٥٩)

ويستمر الاستاذ الشهيد في تسليط الضوء على التفسير الذي يطرحه هذا التيار الإلتقاطي لآية **(ويُقِيمُون الصَّلاةَ)** وكذلك تفسيرهمـ (سورة الحمد) و (الآيات الاولىٰ لسورة البقرة) ويبرهن على أن كلَّ هذه التفاسير إنما هي ذات مظهر ديني ومضامين إلحاديَّة وماديَّة.

ثم يتناول الأُستاذ نموذجاً آخر من هذا القبيل فيقول:

(انكم تقولون في تفسير آية **«وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ»**:

(إن هؤلاء يوقنون بالنظام الأفضل والأسمىٰ حينما تمرُّ الثورة بمرحلة الشهادة ويعلمون أنَّ اتخاذ هذه المواقف وهذا الاسلوب الثوري سوف يؤدّي في النهاية إلىٰ بلوغ الغاية وتحقيق الهدف ألا وهو الوصول إلىٰ إقامة النظام الأفضل والأسمى...)

٥٩ــ المصدر نفسه.

الرؤية الماديّة للتاريخ الإسلامي

إن تفسير الحوادث التاريخيّة وتحليل الوقائع التي شهدها تاريخ الإسلام يعتبر هو الآخر احد مصاديق (الرؤية المادية). وكما نعلم فان للتاريخ الاسلاميّ وخصوصاً تأريخ صدر الاسلام والوقائع التي شهدها عصر النبيّ الأكرم (ص) والأئمّة المعصومين (ع) أهمّية كبيرة جداً لارتباطه الوثيق بفحوىٰ الرسالة وركائزها.

ثمّ إنّ البحث في التاريخ الاسلامي ليس مجرّد استعراض لحوادث الماضي التي هي كغيرها من الحوادث الخاضعة للبحث باعتبارها مجرد (ظواهر تاريخية) وانما هو بحث حول تاريخ يعتبر أحد الركائز المهمّة والمصادر الأدق والأعمق لمعرفة الدين. وان للبحث حول حفظ أصالة تاريخ صدر الاسلام أهمّية كبيرة، لأنّ له تأثيراً مباشراً في صياغة الفهم الأكثر صحّةً للكتاب والسنّة. وكما نعلم فإنّ مصادر الاجتهاد لدىٰ الشيعة أربعة هي: الكتاب، والسنّة، والعقل، والإجماع.

وبالاضافة إلى استنباط الأحكام الفرعيّة الذي يجري بالاعتماد علىٰ الادلّة من قبل الفقهاء، فإنّ فهم العقائد والأخلاق وبقيّة علوم الدين له علاقة مباشرة بالفهم الصحيح لتأريخ الاسلام.

ولذلك فليس ثمّة شكٌّ في أن كيفيّة فهم تاريخ الاسلام وطبيعة تحليله وتفسيره والاستنتاج منه؛ كل ذلك له أثر عميق في كيفية الاستيعاب للكتاب والسنّة، واذا لم يكن هناك فهم صحيح لتأريخ الاسلام، فإنّ الاستيعاب العقليّ للكتاب والسنّة وفهمهما سيصيبه الخلل أيضاً.

والاختلاف بين موضوع هذا البحث وبحث (الرؤية الماديّة للمجتمع والتاريخ) هو أننا بحثنا في الموضوع الثاني آنف الذكر الرؤية الماديّة نحو فلسفة التاريخ. ولكننا نتناول هنا الرؤىٰ الماديّة نحو تفسير الحوادث والوقائع التاريخيّة.

وفي البحث السابق كان بحثنا هو أنّ الاصول والضوابط والقوانين

الكلّية التي يمكن استنباطها من التاريخ قد تعرّضت لتأثير الرؤىٰ المرتكزة إلىٰ (المادّيّة التاريخيّة)، وقد تبرقعت هذه (المادّيّة التاريخيّة) ببرقع الاسلام والقرآن، اما هنا فسيكون البحث منصبّاً علىٰ أن نفس الوقائع والحوادث التي تعرض لها الاسلام والمسلمون ــ وخصوصاً في عصر صدر الاسلام ــ قد تمّ توجيهها وتفسيرها وفق النظرة المادّيّة والماركسيّة.

إن التحليل المادي للتاريخ الاسلامي هو النتيجة المؤكدة والثمرة الطبيعيّة للتحليل المادي لفلسفة التاريخ. ويتناول **الاستاذ الشهيد المطهّري** ــ بناءً علىٰ هذه الحقيقة الواقعية ــ نماذج من التحليلات ذات الطابع المادي لتاريخ الإسلام، ويعالجها بالنقد والمناقشة.

وفي إحدىٰ معالجاته للتحليلات المادّيّة يخاطب (رض) اولئك المحلّلون لأحداث التاريخ وفق الرؤىٰ المادية فيقول:

«انكم إذ تريدون تسويغ استقطاب المجتمع الاسلامي إلى قطبين، وتوجيهه، واعتبار بيت **فاطمة** مركزاً للمحرومين والذين لا يملكون شروىٰ نقير ــ كما يُقال ــ وإضفاء صبغة ماديّة وبُعداً طبقيّاً لتوجُّهات الشيعة من أمثال **ابي ذر والمقداد وبلال**؛ ترفعون عقيرتكم بالكلام علىٰ بيت **فاطمة** (ع) والحديث عن مظلوميّة أهل هذا البيت، وإضرام النار فيه. واذ ذاك تقولون:

(كان المئات من الناس يحضرون كل يوم في بيت **عبدالله بن أبَيّ** ليجلسوا عند منبره ويستمعوا إلىٰ تفسيره للقرآن، **وعبدالله بن أبي** كان ــ لفترات مديدة ــ أحد كبار رجال الدين، ويهوديٌّ منافق، قاتلَ ضدّ انتصار الثورة، ولكنه دخل صفوف الثورة الآن واستبدل الجبهة الخارجيّة والعلنية ــ التي كان يتخندق فيها لمحاربة الثورة ــ بالجبهة الداخليّة ليقاتل الثورة من داخلها، والأنكىٰ من ذلك أنه صار مفسِّراً للقرآن، بل إنّنا نرىٰ ــ وحتىٰ بعد مضيِّ ألف وأربعمئة عام علىٰ عصر ابن أبَي ــ أنَّ النبوغ الذي تميَّز به بعض مفسِّرينا في مجال

التفسيرانّما كـان رهين آراء هذا المفسر الشهير نـفسـه! وتفسيراته وآرائه وأقواله وتحليلاته. بـل إنه يتمتّع بمكـانة خاصّة باعتبـار أنّه من قدامىٰ المفسّرين)). [٦٠]

وبعد ذلك يتـناول الاستاذ الموقف المتّخذ حيـال عبدالله بن أُبيّ بالبحث والنقد، ويفنّد ـ بشكل كلّي ـ التفسير التاريخي المذكور آنـفاً. ويـورد (رض) المؤاخذات التالية:

١ـ إن عبدالله بن أُبي هذا لم يقاتـل الرسول مطلقاً حتىٰ يمكن أن يقال إنّه استبـدل الجبهة الخـارجيّة بالجبهة الـداخليّة بل إنـه ـ ومنذ البدايـة ـ كان يمارس الأعمال المخلّة والشغب من داخل الجبهة الداخلية.

٢ـ إن عبدالله بن أُبي لم يكن مـن رجال الدين بتاتاً، بل وانه كذلك لم يفسّر حتىٰ آية واحدة مـن آي القرآن الكريم، ولم يُؤثَر عنه أنّه كان مفسّراً، ولم يرد ذكره ـ ألبتة ـ بهذه الصفة في أيٍّ من التفاسير.

والنمـوذج الآخر الذي يطـرحـه الاستـاذ هـو الموقف المتّخذ حـيـال واقعة اليمامة، ويشير (رض) إلىٰ مقطع ممّا كتبه (ذوو النظرة المادية للتاريخ) فيقول:

«انكم تقولـون حينما تـتطرقون إلىٰ واقعـة اليمامـة التي كانت عبارة عن معركة طـاحنة دارت رحاها بعد مضـي عام علىٰ وفاة النبي (ص) بين المسلمين وأتباع **مسيلمة الكذّاب**:

(لقد قُتل في هـذه المعـركة عدد كبير من المسلمين يـتراوح ما بين ألف وألف ومئتي قـتيل كما قـيل، ومن بين هؤلاء القتلى سبـعمئة او اربعمئة وخمسون او سبـعون شخصاً ـ وفق أدنىٰ التـقديرات ـ من حَـملَة القرآن وحفّاظـه، وعلىٰ رأس هذه الكوكبة المضيئة يشاهد اسم سالم (مولىٰ أبي حذيفة). وواضـح اذن مَن الذين تسبّبوا في إشعال اوار

٦٠ـ المصدر نفسه/ ص ٤٠.

هذه الحرب». (٦١)

بعد ذلك يطرح الاستاذ سؤالاً فيقول:

«هل تعلمون من هو السيد (سالم) الذي تجعلونه على رأس كوكبة الشهداء حفّاظ القرآن في اليمامة؟! إن سالماً هذا هو الذي كان يقود المجموعة التي هاجمت بيت علي والزهراء (عليهما السلام) وأضرمت فيه النيران وهذا الشخص يدخل في عداد نفس اولئك الأشخاص الذين تطلقون عليهم ـ استهزاءً وسخرية ـ (الصحابة الكبار) وتجعلونهم في القطب المواجه لعلي. وهذا الشخص هو نفسه المقصود بقول الخليفة الثاني وهو يحتظر: (لو كان سالم حياً ما جعلت الامر شورى) أي: ليس لديَّ أيُّ شكٍّ في كونه متقدِّماً على علي والخمسة الآخرين من أعضاء الشورى وأولويَّته عليهم.

ان (سالماً) هذا شخص ايراني من الموالي، وأصله من (اصطخر). وإنني أعلم أنّ سبب كلِّ هذا الاهتمام وكلِّ تلك العناية اللّذين يحظى بهما لديكم أنه ـ كما تصفونه ـ من محرومي التاريخ ومن الذين تعرضوا للأسر والقيود ومن مستضعفي التاريخ. وينتهي أسر سالم واستعباده إلى مرحلة ما قبل المدينة ولما تحدث بعدُ الحروب الاسلاميَّة». (٦٢)

والنموذج الآخر من نماذج التحليل المادي لتاريخ الاسلام يخصُّ ثورة الامام الحسين (ع). فلقد طالع الاستاذ الشهيد المطهّري كتاب (الحسين وارث آدم) وهو من تأليف الدكتور علي شريعتي ثمَّ سلّط عليه الضوء وعالج مضامينه بالنقد. وقد ورد هذا النقد الموجز والدامغ والدقيق في آن واحد في الجزء الثالث من كتابه (الملحمة الحسينية).

---

٦١ ـ المصدر نفسه/ ص ٤١.

٦٢ ـ المصدر نفسه/ ص ٤١ و ٤٢.

ونظراً لكون هذا النقد والبحث ذا أهمية خاصَّة فقد آثرنا نقله بالنص وكما ورد في الكتاب المذكور.

«الحسين وارث آدم».

«اثناء سفري إلىٰ مشهد المقدّسة في ١٧ كانون الاول وحتى ٢١ منه قدَّمت لي دار (طوس) للنشر نسخة من كتاب **(الحسين وارث آدم)** فقرأته في الطريق من مشهد إلىٰ طهران. وقد خرجت من قراءته بنتيجة مفادها أن الهدف المضمر في ثنايا هذا الكتاب هو كما ورد فيه صراحة: (إن المؤلف شاء أن يفرغ كلَّ هموم قلبه وعقده وعقائده ويصبَّها في قالب هذا الكتيب) وكان انطباعي عنه مايلي:

١ـ ان هذا الكتيّب يتضمَّن ما يشبه التوجيه والتحليل للتاريخ على أساس ماذّي ماركسي. إنّه عبارة عما يشبه (مجلس تعزية) ورثاء **للحسين** علىٰ الطريقة الماركسية، وهو أمر جديد من نوعه.

«ووفقاً لما ورد في الكتيب» فانَّ اشتراكيَّة المساواة كانت بداية تاريخ البشر، ثمَّ آل الامر إلىٰ ظهور التفاوت والتمايز والحق والباطل أي الملكية، ومن هنا فان المجتمع البشريَّ ينقسم إلىٰ جزئين مثلما أنَّ دجلة والفرات ينبعان من عين واحدة ومنبع مشترك، ثم تتشعّب تلك العين وذلك المنبع إلىٰ هذين النهرين المنفصلين عن بعضهما بعضاً.

وهكذا فإنَّ جزئي البشريَّة يعنيان ـ وفقاً لرأي د. شريعتي ـ ظهور طبقتين: الطبقة المرفَّهة والمستغِلّة ـ بكسر الغين ـ والطبقة المحرومة والمستغَلة (بفتح الغين). وتملك الطبقة الحاكمة والمرفَّهة والمستغِلة (بكسر الغين) ثلاثة امور هي: السياسة والاقتصاد، والدين، أو بعبارة أخرى: إن اعضاء هذه الطبقة هم أصحاب التِّبْر والقَهْر والزور، فعمل أصحاب التِّبر والمال الاستعباد، وعمل أصحاب القوّة

والقهر والنهب والسلب، وعمل اصحاب الزورالخداع والختل والمكر. فالقصر والمتجر والمعبد ثلاثة فروع لسمسار واحد، والسيف والذهب والمسبحة كلُّها تؤدّي عملاً واحداً.

وطبقاً لرأي الكاتب نفسه فان النظام الحاكم طوال التاريخ كان بهذا الشكل دائماً، وكلُّ ما عدا ذلك فقد كان عبارة عن نهضات محكومة ومقهورة وانتفاضات وثورات مخلصة لكنّها يائسة وعقيمة، ولكن بما أن الاساس كان فاسداً فإن كلَّ النهضات التي قام بها أمثال ابراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد وعلي والحسين أدّت إلىٰ نتيجة معكوسة، وما كان يؤمّل أن يكون إداماً للانسان صار وبالاً عليه، واصبح قيداً آخر أُضيف إلىٰ تلك القيود التي كان يرسف فيها.

ومما جاء في صفحات الكتاب:

ـ كانت الحريّة قد تمثّلت في سبطٍ ليس له بقاء (ص٢٢).

ـ لقد تلاشت صرخة الامام الحسين، اما صياح عجول السامري فهي تتعالىٰ دائماً (ص٢٤).

ـ إن المصير المحتوم لكلّ وَرَثة آدم هو الأسر والابتلاء والمحنة (ص٢٨).

ـ لقد كانت التركة التي بقيت إرثاً من النهضة المحكومة والمقهورة في التاريخ هي: الحريّة والعدالة والوعي، وكانت التركة التي اورثها النظام الحاكم في التاريخ هي: العبوديّة والتعسُّف والظلم ودين الأحلام (ص٣٩).

ـ ان الامام الحسين تجسيدٌ لهزيمة آدم وفشله (ص٤٧).

في هذا الكتيب اعتُبرت بلاد ما بين النهرين رمزاً للارض كلِّها، وتاريخها يعكس تاريخ الأرض جميعها، ونهرا دجلة والفرات اعتُبرا رمزاً لجناحين بشريَّين متضادَّين يفترقان عن بعضهما، ويلتقيان بالقرب من بغداد بشكل كاذب وغير حقيقي، كما تجسّدت مثل تلك

الوحدة الزائفة الكاذبة إبان عصر الخلافة الاسلاميَّة (انظر الصفحات ٩ و٢٩ و٣٩).

ــ وتحدث الجريمة من جديد بصورة أشد مأساوية ويتجسَّد كلُّ مجرمي العالم في كلٍّ واحد من الشُّعب الثلاث في ركائز الخلافة الاسلامية الثلاث، ويبدأ الانحطاط والتراجع الذي لم يشهد له العالم مثيلاً (انظر الصفحات ١٥ و٢٧ و٢٨ و٣٥).

ويجتمع في هذا القول آنف الذكر جميع ما في بقية المضامين من مذام وقبائح ومساوئ.

ــ إن مصير دجلة والفرات هو أن يصبّا ــ في النهاية ــ في البحر، ويخلدا إلىٰ الهدوء والسكون. وهكذا يؤول مصير البشرية وينتهي المطاف بالتاريخ إلىٰ الاشتراكية، وحينذاك فقط يتخلّص الانسان من بلاء المِلكية والنظام الطبقي وينهار الأساس والقاعدة ويقوم علىٰ أنقاضه اساس العدل وقاعدة الانصاف.

ــ لقد كانت جهود الثوار منطلقة من أساس وارضية طبقيَّة ومخلصة ولكنها يائسة وغير ذات جدوىٰ، وان المجتمع لن يصل إلىٰ سعادته الحقيقية إلّا بعد محو الطبقيَّة (ص٩).

ألا بالاشتراكية تطمئنُّ القلوب!

ــ لقد كان الامام الحسين يحث الخطى مسرعاً نحو الموت وهو وحيد ويائس (ص٢٣).

ــ إنه يجسد هزيمة آدم وفشله وهو يبدي تعصُّباً لا طائل من ورائه (ص٤٧).

في هذا الكراس كانت كلمة الانسان أو آدم رمزاً للانسان الاشتراكي، وعُدَّ توحيد العالم مسوّغاً لتوحيد المجتمع ووحدة الامة. كما اعتُبر الشرك العقائدي ظلاً للشرك والاثنينيّة في الحياة. وبهذا التعبير تتجلّىٰ من جديد الصبغة الماركسيَّة في الكتيب، والتي

ترىٰ أنَّ ضمير كلِّ شخص إنّما هو انعكاس وثمرة لوضعه وحالته الاجتماعية، ويمكن أن يكون هذا الرأي تجسيداً لرأي **دوركهايم** لا **كارل ماركس**.

إن مالا يشاهَدُ في هذا الكتيب هو شخصيَّة **الامام الحسين** وآثار نهضته. والاساس الذي يُبتنى عليه مضمون الكتيّب المذكور هو أنّ جميع الجهود لن تجدي نفعاً في المجتمع الطبقي، والثوّار في التاريخ هم وارثو **آدم** أي الإنسان الاشتراكي ــ حسب رأي الدكتور شريعتي ــ وكانت ثورتهم من أجل الحقِّ، والحق يعني العدالة والمساواة أي الاشتراكية ــ طبقاً لرأيه ــ.

إن **الامام الحسين** الذي يشاهد في هذا الكتيب هو نفس **الامام الحسين** المظلوم المقهور الذي يلهج بذكره قرّاء المراثي الحسينيَّة، والذي يتحدَّثون عنه وكأنّه لا دور له مطلقاً في التاريخ، مع فرق ان **الامام الحسين** لدىٰ قرّاء الرثاء الحسيني هو مثابة وسبب للأجر والجزاء الأُخروي لأنَّ البكاء عليه يستوجب كلَّ ذلك، أمّا **الامام الحسين** الذي في هذا الكتيب فإنه اداة بيد الجناح الحاكم يستعمله ــ عبر العزاء والبكاء ــ لغرض استغلال الطبقة المحكومة.

وفي هذا الكتيب يرد ذكر المعبد دوماً مقترناً بذكر القصر والمتجر. كما يُصوَّر رجل الدين وكأنه يقف دائماً إلى جانب الحاكم والرأسمالي. وطبعاً فإن إلى جانبهم المعبد ــ ولا يخصِّص الكتيب الكنيسة او الدير والصومعة او معبد النار او مجمع الاصنام بل يذكر لفظ المعبد الذي يشمل المسجد طبعاً ــ ومن الطبيعي فهنا تكون مهمَّة رجل الدين واضحة». [٦٣]

٦٣ــ الملحمة الحسينية/ ج ٣/ ص ٣٠٧ و ٣١٠.

***الاجتهاد الحر:**

ويعني «الاجتهاد الحر» هذا؛ الاعتراف بحقّ وحرية الاجتهاد للّذين يفتقدون المواصفات والكفاءات المبيّنة في الاجتهاد الفقهي. وأتباع هذا النمط من الاجتهاد هم أُولئك الذين يعطون لأنفسهم أو للآخرين حقّ الاجتهاد وإبداء وجهات النظر لمجرّد امتلاكهم معلومات متواضعة في مضمار الدين وشؤونه.

وتماثل نظرية «الاجتهاد الحر» نظرية «تعميم الإمامة» التي كان بعض الناس يؤمنون بها، والذين يرون ــ استناداً إلىٰ هذه النظريةــ أنَّ الإمامة ليست محصورة في فرد معيَّن ويمكن لكلّ أفراد الناس أن يكونوا أئمّة وقادةً لأنفسهم!

ويمكن اعتبار «الاجتهاد الحر» نمطاً آخر من أنماط الفكر الالتقاطي بل ومن نوع الالتقاط الغربي. ذلك إن هذا الفكر الملتقط قد طُرِحَ بتأثير من الثقافة الغربية. يقول الاستاذ في هذا الصدد:

«بعض آخر من الّذين لديهم اهتمام بقضايا العصر ويفكّرون في آفاق المستقبل يفرّطون بالإسلام بسخاء وكرم ــ مع الأسفــ فهم يتّخذون من المتطلّبات والروح العصريّة معياراً للحقّ والباطل، وتحت غطاء «الاجتهاد الحر»، فإنّهم وبدلاً من أن يجعلوا الإسلام هو المعيار للحقّ والباطل في زمانهم، نراهم يعتبرون المتطلّبات والروح العصريّة السائدة في زمانهم معياراً للإسلام. فعلىٰ سبيل المثال؛ أنهم يرون أنه لا ينبغي أن يبقىٰ صداق الزواج (المهر) لأنه يتنافىٰ مع روح العصر، وأنَّ تعدُّد الزوجات انما هو من ذكريات عهد عبوديّة المرأة ومخلّفاته، وهكذا الحجاب، أمّا الاجارة والمضاربة والمزارعة فهي من بقايا ومخلّفات عهد الإقطاع، والحكم الشرعي الكذائي من ذكريات العهد الفلاني، وأنَّ الاسلام هو دين العقل

والاجتهاد، والاجتهاد يحكم بكذا وكذا». (٦٤)

ويُعتبر «الاجتهاد الحر» المار ذكره مجرَّد غطاء لإضفاء المشروعيّة علىٰ ما اقتُبس من الآخرين. فما هي جذور هذا النمط من التفكير؟ ومن أين أتت هذه الطريقة؟ الجواب في رأي الاستاذ الشهيد هو «النزعة التجديدية المفرطة». يقول (ره):

«على أيَّة حال، فإنَّ النزعة التجديديَّة المفرطة ـ التي ظهرت لدى الشيعة والسنَّة علىٰ السواء ـ هي في الحقيقة عبارة عن حشر ما ليس من الاسلام بالإسلام، وإفراغ الإسلام من مضمونه الحقيقي وجوهره، لغرض إضفاء الطابع العصري على الاسلام وجعله يتناسب ومتطلّبات الزمان، ومثل هذا العمل يُعتبر آفة كبيرة تهدّد النهضة، ومن مهامّ القيادة الاسلاميَّة ووظائفها التصدّي له وإيقافه عند حدّه». (٦٥)

وهنا تُطرح الاسئلة التالية:

ماهو «الاجتهاد الحر»؟

وما هي أُسسه ومرتكزاته؟

للإجابة عن هذه التساؤلات ينبغي التعرُّف ـ ابتداءً ـ علىٰ مغزىٰ الاجتهاد وحقيقته. فالاجتهاد ـ في الاصل ـ يعني استنباط الأحكام الفرعيَّة من المصادر الأساسية (وهي الكتاب، والسنّة، والعقل، والاجماع). والاجتهاد ـ بالمعنى المطروح لدى الشيعة وبمعنىٰ كونه تخصُّصاً علمياً ـ لا يتسنّى لكلّ شخص أيّاً كان، والفقهاء فقط هم الذين باستطاعتهم استخراج الأحكام الفرعيَّة من الأدلّة الأربعة ووضعها في متناول أيدي الناس وهذا المعنىٰ هو الذي كان معنياً طيلة تاريخ الشيعة وخصوصاً في عصر غَيبة الإمام المهدي المنتظر

٦٤ـ الحركات الاسلامية في القرن الرابع عشر الهجري/ ص ١٠٣.

٦٥ـ المصدر نفسه/ ص ١٠٤.

(عجّل الله تعالىٰ فرجه).

هذا هو «الاجتهاد الفقهي» الذي كان شائعاً ـ سنين متمادية ـ في الحوزات العلميَّة، وكان المسلمون يؤدون تكاليفهم ووظائفهم الشرعيَّة اعتماداً عليه وفي ضوء رؤاه. ويقوم الاجتهاد الفقهي علىٰ فرضيَّة أن استنباط الأحكام الشرعيَّة عمل تخصُّصي وليس عمومياً ولا بإمكان كلِّ شخص الخوض فيه.

فاستنباط الحكم الشرعي واستخراجه من مصادره يتطلّب فهماً دقيقاً وصائباً لتلك المصادر. والقرآن والسنَّة والعقل والاجماع مصادر تنطوي علىٰ جانب تخصُّصي لا يتسنى الّا لذي الاختصاص. فليس بوسع كلِّ شخص أن يرجع إلىٰ القرآن ويخرج من قراءته بفهم صحيح ودقيق له. فللقرآن ظاهر وباطن، وآيات القرآن بين محكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، ومطلق ومقيّد، وخاص وعام، ولكلٍّ منها شأنٌ نزلت فيه و... الخ. وتشخيص هذه الآيات عن غيرها والفرز فيما بينها يستلزم التوفرُّ علىٰ معرفة علوم أُخرىٰ والإحاطة بها جيّداً كمقدّمة لذلك.

كما أنَّ الترابط الدقيق لآيات القرآن ببعضها بعضاً ممّا يزيد في صعوبة فهمها. ومباحث القرآن ذات تنوُّع وتشعُّب، فهي تشتمل علىٰ المواضيع الفقهيَّة والفلسفيَّة والكلاميَّة والمنطقيَّة والتاريخيَّة وغيرها، وفهمها يستلزم الاطّلاع والتعرُّف علىٰ العلوم الضروريَّة اللازمة لذلك، وتفسير القرآن يُعدُّ ـ أساساً ـ فنّاً وتخصُّصاً خاصّاً، وهذا الأمر يصدق علىٰ السنَّة النبويَّة أيضاً.

فروايات المعصومين (عليهم السلام) والأحاديث المأثورة عنهم كلُّها باللُّغة العربيَّة. وتوجد فيما بينها روايات صحيحة وأُخرى ضعيفة، ومن بين الاحاديث ما هو موثّق أو مرسل او مسند او... الخ. وينبغي أن يتمكن المرء من تشخيص الاحاديث وفرزها عن بعضها الآخر. وبالاضافة إلى ذلك فانَّ لكل حديث سلسلة من الرواة يُدعَون بسند الحديث، ولذلك فن الضروري التعرُّف علىٰ هؤلاء الرواة.

وللعقل أيضاً دور ومجال محدَّد في مضمار الاجتهاد واستنباط الأحكام، ويستلزم استخدامُه لاكتشاف الحكم الشرعي التوفُّرَ على معلومات كافية واطّلاع

وافٍ ودقيق على المدى والمجال المعيَّن لدور العقل في هذا الصدد.

والاجماع ــ ومعناه اتّفاق آراء الفقهاء ــ الذي يكشف عن قول المعصوم هو الآخر لا يتسنّى بسهولة ويُسر.

ولكلِّ هذه التعقيدات فقد ادرجوا قائمة من العلوم اللازمة لبلوغ درجة الاجتهاد، والاحاطة بكلِّ تلك العلوم تُعتبر مقدّمة لازمة وضروريَّة له. ومن بينها علوم التفسير، والمنطق، والأدب العربي، وأُصول الفقه والفقه والرجال والدراية... وغيرها.

واجمالاً فإنَّ «للاجتهاد الفقهي» مميّزات وملامح هي:

اولاً: إنّه ذو أُسلوب وطريقة خاصَّة، يتناولها علم الاصول. ومن خلال هذه الطريقة وحسب يمكن التوصُّل إلىٰ استنباط يمكن الاطمئنان إليه. وإذا كانت قناة اكتشاف الحكم الشرعي خارج هذا المسار الخاص فإنها تخلو من الاعتبار اللازم.

ثانياً: إنَّ للمجتهد صفات وشرائط خاصَّة في «الاجتهاد الفقهي» وهي عبارة عن:

١ــ ملكة الاجتهاد والاستنباط:

ينبغي أن تتوفَّر لدىٰ المجتهد مَلَكَة ذاتيَّة يمكنه من خلالها استنباط كلِّ حكم بالرجوع إلى الأدلَّة والمصادر التي تخصُّ موضوعه.

٢ــ العلوم اللازمة:

يجب أن يتمتَّع المجتهد بالمستوى الكافي من العلوم التي سبق أن أشرنا إليها والتي تعتبر من لوازم الاجتهاد وضرورياته.

٣ــ التقوى:

ينبغي أن يتمتَّع بالتقوى والعدالة لئلّا يتدخَّل هواه وميله النفسي في استنباطه الحكم الشرعي.

واذا لم تتوفَّر في الشخص الصفات والشرائط المذكورة آنفاً بالمستوى اللازم فلن تكون لديه اهليَّة الاجتهاد وصلاحيَّة الاستنباط.

اما في «الاجتهاد الحر» فلا حاجة للشرائط والقيود المار ذكرها. ففكرة «الاجتهاد الحر» ترتكز إلى أساس نفي كون الاجتهاد تخصُّصياً. فالقائلون بهذا الاتجاه الفكري ينكرون حقيقة أنَّ الاجتهاد عمل تخصُّصي ويعتقدون أنَّ الدين سهل وبسيط لدرجة أن أيَّ شخص ــ مهما كان مستوى فهمه وادراكه ــ يمكنه أن يفهمه، وأنَّ كلَّ شخص بوسعه أن يجتهد حسب مستوى معرفته وتفكيره. وبنظر هؤلاء الأشخاص فإنَّ اعتبار الاجتهاد عملاً تخصُّصياً إنما هو (حربة) بيد رجال الدين يستخدمونها لحمل الناس على الارتباط بهم.

وكما وردت الاشارة في كلمات **الشهيد المطهري** فإنَّ السبب الأصليَّ لهذا النمط من التفكير هو النزعة التجديديَّة المفرطة. بمعنى إنَّ بعضاً من المفكِّرين والمثقَّفين المسلمين الخاضعين لتأثير مظاهر الحضارة والمدنيَّة الغربيَّة ــ كما تسمى ــ يَعتبرون تلك المظاهر من لوازم التقدم والتطوُّر ومواكبة العصر، ولذلك فقد طرحوا مسألة «الاجتهاد الحر» و «متطلّبات العصر ومقتضياته» لكي يستطيعوا ــ على أساس هذه الفكرة ــ إضفاء الشرعيَّة على المدنيَّة الغربيّة بواسطة «الاجتهاد الحر».

فماذا كانت نتيجة هذا النمط من التفكير؟ الامر واضح بيِّن.

هذه الثلّة من المفكّرين أحلّت آرائها ورؤاها الشخصيَّة محلَّ المصادر والأدلّة الشرعية (يعني الكتاب والسنَّة والعقل والاجماع) كمعيار وملاك للأحكام. ومن هنا فقد بدأت شيئاً فشيئاً أُمورٌ من قبيل الالتقاط في الدين والتفسير بالرأي والبِدع والمستحدثات التي هي من عنديّاتهم، وبالجملة: ظهر الانحراف في فهم الدين وادراكه.

كما أن فكرة «الاجتهاد الحر» أضحت حربة ضد سلك رجال الدين، اذ حينما يخرج الاجتهاد من نطاق كونه «تخصُّصياً» بل يصبح امراً «حراً» متاحاً لكلِّ شخص، ويغدو بامكان كل شخص ــ مهما كان مستوى فهمه وادراكه ــ ان يجعل ما فهمه هو من الدين ملاكاً ومعياراً واسلوباً لعمله؛ حينذاك لا تبقى طبعاً ثمة حاجة تُذكر لخبراء الدين والمتبحّرين في أُمور المذهب.

وطبيعي أنه في مثل هذا الوضع المرتبك سوف يكون الشيء المفقود الوحيد هو «الدين». وهنا ينبغي التذكير بأن انكار فكرة «الاجتهاد الحر» لا يعني التغافل عن «متطلّبات العصر ومقتضياته» وعدم توفير الفقه الأجوبةَ اللازمةَ للمسائل المستحدثة. ويؤكّد الاستاذ نفسه في مقدمة هذا البحث هذه النقطة ويقررها بصراحة فيقول:

«من البديهي إن مشاكل المجتمع البشريّ تتجدّد، والمشاكل الجديدة بحاجة إلى حلول جديدة أيضاً. فـ (**الحوادث الواقعة**) ليست سوى الظواهر حديثة الظهور التي تقع مهمّة حلّها على عاتق حَمَلة المعارف الاسلاميّة. وسرُّ ضرورة وجود المجتهد في كلّ مرحلة، ومغزى ضرورة التقليد والرجوع إلى المجتهد الحي هي هذه، وإلّا فليس هناك فرق بين تقليد المجتهد الحيّ والمجتهد الميت لو كان الأمر يتعلّق بسلسلة من المسائل الثابتة والمعروفة الأحكام سلفاً.

واذا كان هناك مجتهد لا يهتمُّ بالمسائل الحديثة ولا يبالي بالمشاكل المستجدّة فينبغي عدُّه في قائمة الاموات».(٦٦)

وهنا ينبغي القول إنّه وكما أنَّ ثمّة نوعين من الاجتهاد هما: الاجتهاد الفقهي والاجتهاد الحر (وهما يشتركان في لفظة الاجتهاد) فإنَّ هناك نمطين من النظرة إلى (المسائل المستحدثة) و (متطلّبات العصر ومقتضياته) وهما يشتركان كذلك في الصيغة اللفظيّة.

فثمة رأي يقول: تعالوا نواكب (العصر) ونساير (الزمن) ولنَرَ ماذا يقبله «العصر» ويستسيغهُ (الزمن) فنجعله لنا ملاكاً ومقياساً، ومن خلال الاجتهاد نتقبل ما ينسجم وروح (العصر) ويتقبله (الزمن) ونرفض ما يرفضه.

وفي هذا الرأي نجد أن الملاك هو (العصر) و (الزمن) ونفس (كون الامر جديداً وحديثاً). فالحد الفاصل بين القيم وأضدادها هو (الجدّة والحداثة

٦٦ـ المصدر نفسه/ ص ١٠٢.

وتقبُّل الزمن).

فمثلاً إن العالم الآن لا يستسيغ الحجاب الساتر الذي قرره الاسلام للمرأة، فعلينا نحن أيضاً أن نعيد النظر في هذا الحكم عن طريق الاجتهاد! وان الاجارة والمزارعة والمضاربة لم تَعُد تنسجم مع عصرنا الحالي فينبغي لنا أن نعيد النظر فيها! والمجتمع البشريّ الآن لا يتقبّل القصاص ولذلك فيجب أن نتخلّى عنه ونرفضه!!وقس على هذا.

ومع الاسف إنَّ هذه الرؤية تُشاهد حتى في المجتمع المعاصر، فبعض الآراء التي تُطرح اليوم باسم (الاجتهاد المتطوّر) او (المستقصي) ترتكز إلى هذا الاساس.

والآن ما هي النظرة الثانية؟

هنا أيضاً يتركّز الاهتمام على (المسائل المستحدثة) و (متطلّبات العصر ومقتضياته) ولكنها لا تتخذ ملاكاً ومقياساً وانما ملاك الصحة والخطأ، والقيم وأضدادها، والحق والباطل، وكونها شرعية او غير شرعية؛ليس بالامر الذي تحدّده وتفرزه أذواق الزمن ومقبولات العصر، بل هو ما يقوله (الدين)... الملاك والمقياس هنا هو (الدين) و (الفقه).

و (الاجتهاد المتطوّر) يعني في إطار النظرة الثانية تحرُّك (الاجتهاد الفقهي التقليدي) بمواكبة الزمان والمكان، بل والتقدُّم عليها خطوة إلى الأمام و (الاجتهاد المتطور) فحواه تعيين موقف الدين وموقف (الفقه التقليدي) حيال جميع المسائل المعقّدة والمستحدثة.

و «الاجتهاد المتطوّر» ليس هو الخضوع والرضوخ لـ (المعضلات) والانصياع لكلٍّ ما تمليه علينا (المعضلات) وتفرضه علينا، وانما هو (حل المعضلات) عبر الطريق الذي يرشدنا له (الشرع والدين).

وان ما كان قد تفضّل به سماحة **الامام الخميني** (رضوان الله تعالىٰ عنه) بخصوص (تأثير الزمان والمكان في الاجتهاد) لم يكن معناه أن ينظر مجتهدونا ماذا يريده (الزمان والمكان) وما الذي يرتضيانه وحينذلك يبادرون إلى الاستنباط

طبقاً لما يمليانها عليهم (الزمان والمكان).

وطبيعي أنَّ (الزمان والمكان) يُبرِزان الى حيِّز الوجود موضوعات جديدة، ومن الممكن أن تطرأ تغييرات جوهريَّة وماهوية على الموضوعات السابقة، ولكنها لا تقدّم لنا (حكماً). فالحكم ينبغي للمجتهد أن يستخرجه من المصادر والأدلَّة الشرعيَّة والكتاب والسنّة. ويجب أن يبادر المجتهد الى تحديد موضوعات برزت الى حيِّز الوجود وانبثقت من صميم (الزمان والمكان) او طرأت عليها التغييرات، ثمَّ ينهمك في (حل المعضلات). وهنا نريد أن نغتنم الفرصة فندق نواقيس الخطر وننبه الحوزات المقدَّسة والفقهاء الأجلّة.

أيها الاعزاء... يا زعماء الدين!

إن (الاجتهاد الحر) يَعتَبِر نفسه بديلاً لـ (الاجتهاد الفقهي التقليدي)، بل إن هذا ما بدأ يحصل عملياً، وأتباع فكرة (الاجتهاد الحر) مسرورون اليوم ومغتبطون لعجز (الاجتهاد الفقهي) عن حل المشاكل الفقهيَّة والمعضلات الدينيَّة في النظام الإسلامي، بل وحتى إنه ثمة سعي حثيث يجري لإضعاف الاجتهاد الفقهي أكثر فأكثر، لكي يستطيعوا أن يتجاهروا بالقول إنَّ الفقه والعلماء عاجزون عن حلِّ المعضلات، وبالتالي يستغلّون الخلأ الفقهي الذي وُجد ويقدِّمون أُطروحتهم ويوصلونها الى حيّز التطبيق.

فإن لم تستطع حوزاتنا العلميَّة وفقهاؤنا الأجلّة اتخاذ القرار المناسب وإصدار الحكم الصائب بشأن كلِّ واحد من الموضوعات المستحدثة والمشاكل الفقهيَّة في الحكومة الاسلامية في الوقت المناسب، بل وحتى التقدُّم على الزمن خطوة الى الأمام، واستنباط أحكامها الشرعيَّة طبقاً لما يراه الدين، ووضعِها في متناول أيدي المسؤولين؛ اذا لم يحصل ذلك فإنَّ اسلوب (الاجتهاد الحر) لربَّما يصبح هو المتبنّى والمطروح، من خلال انتهاز فرصة وجود الخلأ الناتج عن ذلك.

ولله الحمد فإنَّ النظام الاسلاميَّ تمكَّن حتى الآن من اجتياز العقبات والتغلُّب على المشاكل الواحدة تلو الأُخرى اعتماداً على (الاجتهاد الفقهي) و (الفقه التقليدي المتطوّر)، وأن يفتح أُفقاً رحباً ومضيئاً لعالم الغد، إلّا أنَّ استمرار

ذلك يتطلّب بذل المزيد من الجهود والدقّة أكثر فأكثر.

*** انتقال القيادة من العلماء الى المثقفين:**

آخر نمط من أنماط «الرؤى الالتقاطيّة» التي حظيت بالاهتمام في مؤلّفات الاستاذ الشهيد آية الله **المطهّري** اطروحة (انتقال القيادة). وبادئ ذي بدء نطرح الامر من وجهة نظر الاستاذ الشهيد:

«بعض آخر من الناس أبدوا رأيهم بصورة أُخرى حول ضرورة انتقال قيادة النهضة الإسلاميّة من (العلماء) إلى طبقة مَن يسمّون بـ (المثقّفين)، قائلين:

(إن المجتمع الإيرانيّ اليوم مجتمع ديني، وإيران اليوم تشبه أوربا القرن السادس عشر والسابع عشر من حيث المرحلة الاجتماعية، اذ كانت تتنفس في جوٍّ ديني ويمكن تهييجها بالشعارات الدينيّة فحسب.

ومن جانب ثانٍ فان دين هذا الشعب هو الاسلام ــ وخصوصاً الاسلام الشيعي ــ وهو دين ثوريٌّ وباعث على التحرك . ومن ناحية ثالثة فانَّ في كلِّ مجتمع فئةً خاصّةً من المثقّفين لديهم وعي إنساني ذاتي، ويشعرون بآلام الانسان المعاصر، وهم الفئة الوحيدة المؤهّلة والمسؤولة عن إنقاذ مجتمعها.

وينبغي لمثقّفي المجتمع الايراني المعاصر أن لا يقيسوا ايران اليوم باوربا اليوم فيقدّموا لايران نفس الوصفة العلاجيّة التي قدّمها مفكّرون من أمثال **سارتر وراسل** لاوربا المعاصرة. إنَّ عليهم أن يعلموا اولاً أنَّ المجتمع الإيرانيَّ المعاصر هو في مستوى أوربا القرن السادس عشر والسابع عشر وليس بمستوى اوربا القرن العشرين. **وثانياً** إن الاسلام ليس هو المسيحيّة، فالإسلام ــ وخصوصاً الإسلام الشيعيّ ــ دين التحرُّك والثورة والدم والحرية والجهاد والشهادة.

والمُثقّف الإيرانيُّ يظنُّ أنَّ دور الدين قد انتهى اليوم في ايران بناءً على أساس وهميٍّ هو: إنَّ الدين لم يَعُد له دور في اوربا اليوم، وقد لعب دوره في الماضي. بينما الحقيقة هي إن ايران غير اوربا والإسلام ليس هو المسيحيَّة. وينبغي للمثقَّف الايراني أن ينطلق مستلهماً من هذا المنبع العظيم للتحرُّك والطاقة من أجل إنقاذ شعبه. وطبعاً فإنَّ لهذا التحرك شروطاً أوّلها: أن (يشق عصا الطاعة) و (ينعتق من ربقة القائمين على امور الدين وحماته الحاليين))).(٦٧)

ان فكرة انتقال قيادة المجتمع من العلماء الى المثقفين ليست فكرة حديثة ــ اذن ــ وانما هي ذات جذور ضاربة في العمق. فأساساً نجد أن الشعب المسلم ــ وانطلاقاً من ايمانه ومعتقداته الدينيَّة والمذهبية ــ كان دائماً يختار علماء الدين كقادة دينيين وسياسيين له طوال التاريخ الماضي. واذا تأمَّلنا في النهضات والثورات الإسلاميَّة التي شهدتها المئة سنة الأخيرة فسنرى أنه اينما حمل عالم او عدَّة علماء مناضلين مخلصين راية الكفاح فإنَّ الشعب المسلم يلتفُّ حولهم بسرعة وايمان وإندفاع، ودونك العديد من الامثلة على خوضهم غمار النضال ضد حكم الطاغوت، ابتداءً من نهضة التنباك وحتى ثورة الدستور (المشروطة) ومنها الى نهضة تأميم النفط، ومنذ انتفاضة ١٥ خرداد حتى انتصار الثورة الاسلامية في ١٩٧٩... طيلة هذه الفترة كان العلماء هم حَمَلة راية الكفاح والنضال ضدَّ أنظمة الجور.

ومن ناحية أُخرى نجد أن طبقة من يسمّون بـ «المثقَّفين» كانت تفكِّر ــ ومنذ ظهورها في المجتمع الايراني ــ بنقل القيادة من العلماء. وواضح لدى المطّلعين على تاريخ ايران السياسيِّ أنَّ ولادة الطبقة المثقّفة (بمعناها الخاص) لم تكن منذ البداية ولادة شرعيَّة، فقد تمَّت تلك الولادة من خلال إرسال البلاط الملكي القاجاري عدداً من الشبّان الى بلاد الفرنجة لغرض الدراسة العالية، وإثر

٦٧ــ المصدر نفسه/ ص ٨٠ و ٩٠.

عودتهم الى البلاد ظهرت النواة الاولى للمثقّفين وتأسست أُولى ركائز الطبقة المثقّفة في إيران. ومنذ ذلك التاريخ استمرّت ــ نوعاً ما ــ بقايا تلك الركائز متمثّلة بفئة المثقّفين في المجتمع الإيراني.

إن الذين وضعوا أُسس الطبقة المثقّفة في ايران أشاعوا وروّجوا بين الناس وفي أوساط المثقّفين أنفسهم ــ لغرض تهيئة الأجواء اللازمة لنقل القيادة وشقّ العصا على العلماء ــ على الدوام أنّ للمثقف باعاً أطول من غيره، وأنّ المثقّف سبّاق ومتقدم دائماً، وأنه المنادي بالحريّة والمساواة والاستقلال، وأن المثقّفين هم القادة الفكريُّون للمجتمع، وأن المثقّفين كذا وكذا... الخ.

إن هذا التبليغ والترويج كان يجري بشكل منتظم ومنسق خلال الـ ٧٠ــ٨٠ عاماً الأخيرة، مما جعل الأُمور تلتبس على المثقّفين أنفسهم، وقد توصّلوا هم ايضاً الى هذا الظن وهو أن الطبقة المثقّفة هي الفئة الوحيدة التي تمتلك صلاحية القيادة وأهليّة هداية المجتمع.

والتاريخ الايراني المعاصر يدلُّنا بوضوح على أنّ المثقّفين المنحرفين كانوا دائماً بصدد الاستحواذ على القيادة الفكريّة للمجتمع وبذلوا الجهود لتحقيق هذا الغرض، على الرغم من عجزهم عن تحقيق نجاح يُذكَر في هذا المضمار بسبب وجود الايمان الديني عند الناس.

وهناك نقطة جديرة بالذكر وهي أن هؤلاء المتظاهرين بالثقافة حينما رأوا قوة الإيمان الديني وسعة انتشاره بين الناس أخذوا يبذلون جهودهم مصحوبة بطابع الدين من أجل الاستحواذ على قيادة المجتمع، فكانت أكثر جهودهم تصطبغ بالطابع المذهبي كذلك.

ولذلك فإنّ المثقفين الذين كانوا يخالفون الاسلام علناً ويعاندونه جهراً لم تكن لديهم أية قاعدة شعبية بين الناس، وبناءً على ذلك اهتموا اهتماماً خاصاً بإضفاء الطابع الديني على شخصياتهم حتى أصبح ذلك من اهم الامور لديهم.

ولربّما لا تُبدي هذه الفئة من المثقّفين مخالفتها للمظاهر الدينيّة ومعارضتهم للعلماء بشكل علني، بل على العكس من ذلك فإنّهم يتظاهرون بأنهم

ذوو شخصيّات دينيّة بالكامل بل انهم لربّما تظاهروا بكونهم علماء دين أيضاً، ويسخّرون بعض العلماء السذّج ويضعون لهم سيناريو على الشكل التالي:

(الاستفادة من بعض العلماء الطيبي القلوب من أجل إزاحة فئة العلماء بمجملها وإخراجها من الساحة).

ولم يكن هذا السيناريو نادر التطبيق طيلة التاريخ الإيراني المعاصر، بل إنَّ النموذج الواضح له هو نهضة المشروطة في ايران. فقد تمكن بعض المثقّفين الفاقدين لذواتهم والمستغربين مثل **تقي زادة** ـــ حتى وهم يرتدون زيَّ العلماء ـــ من جذب عدد من العلماء (حتى من المستويات القيادية المتقدمة) وبالتالي فقد سخّروهم وجعلوهم في مقابل علماء آخرين مثل **الحاج الشيخ فضل الله النوري**.

وكان برنامجهم ـــ في الظاهر ـــ يستهدف حذف قسم من فئة علماء الدين وجعْل علماء آخرين في سدّة الحكم، بَيدَ أن حقيقة الامر كانت شيئاً آخر وهو قلع أساس فئة العلماء وإزاحتهم جميعهم، وهذا هو الذي حصل وشاهدناه.

فقد استطاعوا أن يشنقوا **الشيخ فضل الله النوري**، بينما لم تظهر مخالفة جدّية وصادقة من قِبل بقيّة العلماء والقادة الدينيّين، وربّما تصور هؤلاء العلماء أنْ ليس ثمّة نيّة سوء مبيتة. ولكننا شاهدنا كيف أن المرحوم **آية الله البهبهاني** اغتيل بعد مرور عام على استشهاد **الشيخ فضل الله النوري**، وأصبح المرحوم **آية الله الطباطبائي** جليس بيته، وهكذا كان مصير الآخرين الذين انزووا جانباً عن ساحة الحوادث.

واليوم أيضاً ينبغي أن يكون علماؤنا واعين حذرين، إذ من الممكن أن يكون بعض المثقّفين متديّنين وصادقين حقاً، ويتقبلون قيادة العلماء من صميم قلوبهم، ولكنَّ عدداً منهم مازالت لديهم ترسُّبات مثقّفي عهد المشروطة، ويعتبرون أنفسهم الطبقة السبّاقة والرائدة، ويدّعون توفُّرهم على قيادة المجتمع وهدايته فكرياً (ويتحدثون بذلك بشكل علني وبصراحة) وهؤلاء لا يؤمنون حقاً ومن اعماق أنفسهم باتّباع العلماء وإطاعتهم. إنهم رفاق درب في الظاهر لكنّهم مترصدون يرتقبون الفرصة المناسبة ويتربّصون الظروف المؤاتية.

إن هؤلاء ليسوا مقلّدين حقيقيين، بل متى ما كانت الفتوى لا تنسجم مع أذواقهم ورغباتهم فإنّهم يطرحون لمخالفتها التسويغات اللازمة والتأويلات المقنعة، ويسلكون سبيلهم الخاص في نهاية المطاف. ومن الممكن أن يتظاهر هؤلاء بتقديم فروض الطاعة والولاء، والسعي للاتحاد، ولكنهم يرافقون العلماء ويؤيّدونهم متى ما ظل هؤلاء العلماء وسائل مسخّرة وأدوات مفيدة لهم في تحقيق مطامعهم وبلوغ مآربهم.

وعلى أية حال، فإنّ «اطروحة انتقال القيادة» ذات سبل ملتوية، واساليب معقّدة، ومسالك متنوعة، ولا ينبغي الانخداع بها أو إظهار أدنى بساطة او سذاجة حيالها، او الظن بأنّ الدهر قد أكل عليها وشرب أو لم يعد لها ثمّة وجود أومؤيّدون.. أبداً فإن أغفل العلماء ذلك فإن المثقّفين المنحرفين يتحيّنون الفرص ويترصدون الامور لكي «يشقّوا عصا الطاعة» و «يعلنوا التمرُّد» ويضعوا «اطروحة انتقال القيادة» موضع التطبيق ولو تدريجياً وعلى المدى البعيد، بل وحتى بأيدي العلماء أنفسهم.

* * *

الفصل الثاني

التحجُّر الفِكري

* أولاً:

معنى التحجُّر وأنواعه

قلنا في البحوث السابقة إنَّ الالتقاط الفكري والتحجُّر العقائدي نمطان من أنماط الفكر المنحرف، وقد خاض **الشهيد المطهّري** نضالاً فكريّاً وعلميّاً واسعاً وشاملاً ضدّهما. وقد لوحظ وجود هذين الأمرين طيلة التاريخ الاسلامي وعبر أشكال مختلفة. وأعقد أنماط «الالتقاط» و «التحجر» شوهدت خلال العقود الأخيرة في ايران. وكان لكل من «الالتقاط» و «التحجّر» منشأ ومنطلق معيّن.

فالالتقاط انطلق ــ في الغالب ــ من عهود نشوء الفئات والمجاميع المثقّفة والمتجدِّدة، تلك الفئات التي لم تراعِ القضايا والأحكام الدينيّة بدقّة. اما التحجُّر فقد كان منطلقه المجاميع الدينيّة والفقهيّة وعوام الناس من الذين يلاحَظ لديهم ــ إلى حدٍّ ما ــ التزام بالدين والآداب والفرائض.

ومغزى ذلك هو وجود الارضيّة اللّازمة والاستعداد الذاتي في اوساط كلٍّ من الفئتين لنموِّ هاتين الظاهرتين الانحرافيتين، ولذلك فإننا نرى أنَّ «الالتقاط» غالباً ما يشاهَد في اوساط الجامعة، و «التحجر» يوجد في الأعم الاغلب في الحوزة العلميّة الدينيّة.

وطبعاً فانه يوجَد في كلا الوسطين علماء من أصحاب الضمائر اليقظة والعقول النيرة، ممّن خاضوا غمار الكفاح ضدَّ هاتين الظاهرتين وحالوا دون

اتساع انتشارها وتغلغل نفوذهما. وفي الصفوف المتقدمة لهؤلاء العلماء شهداء من امثال **آية الله المطهري**، **وآية الله الشهيد البهشتي**، **وآية الله الشهيد المفتّح**، **والشهيد باهنر**، وهم روّاد الكفاح ضد هاتين الظاهرتين الانحرافيتين.

هؤلاء الشهداء قاوموا «الالتقاط» في الجامعة وكافحوا «التحجر» في الحوزة العلمية الدينية، وتركوا تأثيراً كبيراً في هذا المضمار.

ويتمتع الشهيد **آية الله المطهري** ببروز خاص وتألُّق أكثر في هذه الكوكبة من الافذاذ. فهو باعتبار حضوره الطويل في الحوزات لسنين متمادية ووجوده في صميم التجمُّعات والأوساط الدينيَّة وبين جماهير الناس، ولكونه قد تعرَّف عليهم عن كثب ولمس ما يعانونه عن قرب، فإنَّه قد شخَّص جيِّداً جذور «التحجُّر» ومساربه وكافح ضدَّ شتى أنماطه ومختلف أشكاله.

وسنحاول في هذا البحث أن نلقي نظرة إجمالية على سير الكفاح الفكريّ للأُستاذ الشهيد ضدَّ «التحجُّر» (كما فعلنا ذلك خلال دراستنا لموضوع «الالتقاط»)ونتعرَّف على كنه هذا الانحراف ونوضح أخطاره ـــ اكثر من السابق ـــ على الناس وخصوصاً العلماء والمخلصين.

وعلى الرغم من أن **الاستاذ الشهيد المطهّري** كان قد حمل راية النضال ضد «فئة المتحجّرين» منذ سنيّ ما قبل انتصار الثورة الاسلامية، سواء كانوا في الحوزة او الجامعة، ولكن هذا لا يعني أن تيّار «التحجُّر» و «السطحيَّة» قد تلاشىٰ وانتفى كلياً مع انتصار الثورة الاسلاميَّة والتغييرات التي اقترنت به.

وطبعاً فقد تلقّى هذا التيّار الخطير ضربات قويَّة ببركة الثورة الإسلاميَّة وإرشادات **الامام الخميني (رضوان الله تعالىٰ عليه)** والمساعي المستمرَّة والمتواصلة التي بذلها الفقهاء والعلماء ورجال الدين الواعون والملتزمون، بَيدَ أنَّ جذوره وترسُّباته مازالت موجودة في عمق أوساط المجتمع وأروقة الجامعة وحلقات الحوزات العلمية، واذا لم يتم استئصال هذه الجذور وتصفيتها تماماً فمن المحتمل أن تجد لها الظروف المناسبة والاحوال الملائمة فتُخرج رؤوسها من جديد وتبدأ في الظهور رويداً رويداً.

لقد حذّر سماحة الامام الخميني (قدّس الله نفسه الزكية) ــ هذا الفقيه المخلص المتحرق القلب وصانع ملحمة القرن المعاصر ــ الذي عانى طويلاً وكابد كثيراً من «المتحجّرين» وتحمّل الأذى والتجريح منهم، وتلقى الضربات إثر الضربات من جانبهم، ولمس ــ عن قرب ــ خطر هذا النمط من التفكير على الاسلام ومسيرة النضال؛ حذّر أبناءه طلبة العلوم الدينيّة من «خطر المتحجّرين» بعد ١٠ سنوات من انتصار الثورة الاسلاميّة، قائلاً:

(وما هو بالضئيل خطر المتحجّرين والحمقى من المتظاهرين بالقدسيّة في الحوزات العلميّة، فلا يغفل الأعزّاء طلبة العلوم الدينيّة ولا للحظة عن هذه الأفاعي ذات الظاهر المغري والخداع، فهؤلاء هم مروّجو الاسلام الامريكي وأعداء رسول الله (ص)).[٦٨]

ويقول الامام الخميني (ره) في موضع آخر مشيراً إلى «مكابدته» من جانب المتحجّرين:

(وماقطّعته هذه الفئة المتحجّرة من نياط قلب أبيكم الشيخ هذا لم تستطع ــ أبداً ــ أن تقطّعه كلّ ضغوط الآخرين والمشاقّ التي سبّبوها.

وعندما فعل شعار فصل الدين عن السياسة فعله، وراج وانتشر، وحينما أصبح التفقُّه في منطق الجهلة هو الانغماس في الأحكام الفرديّة والعباديّة، وعندما لم يعُد يحقّ للفقيه ــ تبعاً لذلك ــ الخروج من هذه الدائرة وأسرها، والتدخُّل في شؤون السياسة والحكم.. عندما ساد هذا المنطق أصبحت معاشرة الناس تُعدُّ حماقة كبرى بالنسبة لعالم الدين.

وعلى حدّ زعم بعضهم فإنّ عالم الدين يكون جديراً بالاحترام والتكريم عندما يكون غارقاً في الحمق بشكل كلي، وإلّا فإنّ عالم الدين المعنيّ بالسياسة او المدبّر والذكي هو ذو أهداف ومطامع مشبوهة ــ في

٦٨ــ من البيان التاريخي الذي وجّهه سماحة الإمام إلى المراجع والعلماء والحوزات العلمية في ١٩٨٩/٢/٢٢م.

نظر أصحاب هذا الزعم ــ وامثال هذه المزاعم كانت رائجةً في الحوزات الدينية ووفق مقاييسها.

فمن كان اكثر انحرافاً من غيره فهو أشد تديُّناً. وكان تعلُّم اللغات الاجنبية يُعدُّ كفراً، ودراسة الفلسفة والعرفان تُعدُّ معصية وشركاً.

في مدرسة الفيضية شرب ولدي المرحوم مصطفىٰ ــ وكان آنذاك صغيراً ــ ماءً من زير خزفي في تلك المدرسة، فقام بعضهم بغسل الزير الخزفي بالماء لتطهيره! ذلك لأنني كنت أدرّس الفلسفة!!

وانني على يقين من أنه لو كان قد كُتب لهذا التيار الاستمرار لأصبح وضع الحوزات الدينية وعلمائها كوضع كنائس القرون الوسطىٰ، ولكنَّ الله ــ تبارك وتعالىٰ ــ منّ علىٰ المسلمين وعلمائهم بأن حفظ كيان الحوزات ومجدها الحقيقي). (٦٩)

وهنا يشير سماحة الامام الخميني «رضوان الله عليه» إلى «الضربات التي تلقاها الاسلام من المتحجرين طيلة التاريخ الماضي» قائلاً:

(وإنّ ما تلقّاه الاسلام من ضربات هؤلاء المتلبّسين بزي العلماء والمرائين بظاهر القدسية لم يتلقّ مثيلاً له من أية فئة أخرىٰ، والنموذج البارز لهذه الضربات يتجلّىٰ في مظلومية أمير المؤمنين (ع) وغربته المعروفتين في ثنايا التاريخ). (٧٠)

ثم يذكّر سماحته (رحمه الله) بـ «عراقيل المتحجّرين» وافتعالهم العقبات في طريق الكفاح ضد نظام الطاغوت و «ثرثرتهم» و «استقصائهم الذرائع» في مقابل نظام الجمهورية الاسلامية، قائلاً:

(بالامس كان المتظاهرون بالقدسية عديمو الشعور يقولون بعزل الدين عن السياسة، ويحرّمون معارضة الشاه، لكنهم اليوم يزعمون أن مسؤولي النظام الاسلامي أصبحوا شيوعيين، وحتىٰ الأمس القريب كان هؤلاء يرون شرب الخمر والفساد والفحشاء والفسق ووجود سلطة الظالمين؛

---

٦٩ ــ المصدر نفسه.

٧٠ ــ المصدر نفسه.

يرون كلّ ذلك أمراً مفيداً يفتح الطريق أمام ظهور الإمام الحجّة المنتظر صاحب الزمان (ارواحنا فداه).

اما اليوم فهم يطلقون صرخات «وإسلاماه» لأن مخالفة بسيطة للشرع وقعت في زاوية ما في هذا البلد على الرغم من أن مسؤولي النظام الاسلامي يعارضون وقوع تلك المخالفة.

والحجتيون الذين حرّموا الجهاد بالامس وبذلوا كامل جهودهم لإفشال الإضراب عن إنارة الأضواء في الخامس عشر من شعبان، قاموا بذلك في أوج تصاعد الكفاح والمواجهة، خدمةً للشاه؛ هؤلاء صاروا اليوم أكثر ثوريةً من الثوريين أنفسهم.

ودعاة الولاية الذين أهانوا بالأمس كرامة الإسلام والمسلمين بسبب موقفهم التقاعسي الصامت وتحجُّرهم، وقصموا بأعمالهم ظهر النبيّ الأكرم (ص) وأهل بيته الطاهرين (عليهم السلام) هؤلاء الذين لم يخرج تعاملهم مع شعار الولاية عن إطار استخدامه مصدراً للكسب ووسيلة للترف؛ طفقوا يطرحون اليوم أنفسهم باعتبارانهم بُناة الولاية ووارثوها، ويتحسّرون على حال الولاية في ظلّ حكم الشاه.

وحقاً، فمن اين تصدر الاتهامات بالعمالة لأمريكا وروسيا وبالالتقاطيّة التلفيقيّة وعدم الأصالة، واتهامات تحليل المحرّمات وتحريم المباحات وقتل الحوامل وتحليل القمار والموسيقى؟!

هل تصدر اتهامات كهذه من أناس لادين لهم أم من مرائين بالقدسيّة ومتحجّرين عديمي الاحساس؟!»[(٧١)].

ان الاخطار التي أشار الامام الخميني إليها بخصوص «المتحجّرين» لمسها **الشهيد المطهّري** عن قرب، وشهد ـ شخصياً ـ الضربات والاضرار التي ألحقوها بالاسلام والنهضة، وهذا الامر يتوضح جلياً من كفاحه المرير وصراعه الشديد ضد «التحجُّر» و «التقدُّس الفارغ» و «السطحيّة والتمسُّك بالقشور».

ونرى من الضروري أن نلقي نظرة ـ قبل أن نتناول آراء **الشهيد المطهّري**

٧١ـ المصدر نفسه.

ومقتطفـات مـن مؤلفاتـه في هـذا الموضوع ــ على معنى الـتـحجّر وأنواعـه وأنماطه، وكـذلك جذوره وأسـبابه، ثم نسـتـعرض بعـد ذلك آراء الاسـتـاذ في هـذا المضمار بالتفصيل.

*** معنى التحجر:**

الـتـحـجُّر لغةً مشتـق مـن لـفظ «الحجر» المرادف لـلصـخـر والمعبّر عن الصلابة والصعوبة.

والـتـحـجـر اصطـلاحاً يـعني (وهـو مـأخوذ او قـريـب من المـعنى الـلغوي للكلمة):الجـمـود وانعدام المرونة والـليونة. وهي حـالة تُشاهَد عنـد الانسان حين تنعدم لديه المرونة في الموقف من أي فكرة او ظاهرة جديدة.

والشخص الموصوف بالتـحـجر يضع لنفسه أُصـولاً ثـابتة وأُطُراً محدَّدة ويفترض عدم إمكان طـروء أيِّ تغيير عليها، واستناداً الى تلك الاصول وفي داخل تلك الأُطر فإنه يرفض تقبُّل أيِّ فكر واعتقاد جديد. فيمكن النظر إلى «التحجر» من زاويتين؛

فمن جهـة؛ يكـون التحجر بـنـاءً على اصول هي في الحقـيقة والواقع ثـابتة خالدة ولا تقبل التغيير والتبديل في أي وقت وتحت أية ظروف مهما كانت. وهذه الصلابة وهذا الـثبات لـيس فقط لا يعدُّ من الامور السلـبيَّة الذميمة بـل يعتبر من القيم والامور الايجابية، وتوجد هناك العديد من الامثلة عليه.

ومـن بين تلك الامـثلة: الاعـتـقـاد بالاصـول الدينـية الثابـتة كالـتوحيد والنـبوّة والمعاد، او ضـروريـات الديـن وفروعـه التي لا تقـبـل الـتـغيير كـالصلاة والصـيـام والجهـاد والأمـر بـالمـعـروف والنهي عن المـنـكـر، وكـذلـك الحـجاب والـقصاص وبقـية أحكـام الاسـلام الضرورية، والاعـتقاد الـراسخ والصلب غير الـقـابل للتساهـل في مـثـل هذه النماذج والامثلة؛ يُعتبر في حدِّ ذاته من القيم التي تستحقُّ المدح والثناء (وطبعاً ينبغي الانتباه إلى أمر مهمٍّ وهو أنَّ ما يستحقُّ الثناء هو أصل الاعتقـاد بهذه المفاهيم آنفـة الذكر لا كيفـية فهمها او نوعية النظر إليها،

والتي من الممكن أن تتغير وتتكامل مع مرور الزمن، فهي تقبل التغيير على كلّ حال).

ومن البديهيّ أنّ الاعتقاد بهذه الأُصول الثابتة والضروريَّة في الدين لا يمكن ولا ينبغي أن يتغيَّر إلى الأبد، ولا يسوغ إعادة النظر فيها أو إبداء مرونة بشأنها. وهذه الميزة يمكن أن نطلق عليها «التصلُّب والثبات الايجابي».

اما من الزاوية الاخرى فيمكن النظر الى الصلابة وانعدام المرونة في قبال الاصول والعقائد القابلة للتغيير، وهي الاصول التي تنطوي على إمكانية حصول التغيير والتبدل فيها وطروء التغيير عليها، او أنماط الفهم والاعتقادات التي من الممكن تغييرها. من قبيل لو وُجدت لدىٰ المرء توجُّهات وميول تسوقه إلى سدّ الطريق أمام نفوذ أيِّ فكر جديد او تصوُّر حديث مبتكر، فالتصلُّب في مثل هذه الاصول او الاعتقادات وعدم إمكان إعادة النظر فيها باتجاه التكامل او الاصلاح ورفض أيِّ شيء من هذا القبيل؛ يُعتبر من الامور المنافية للقيم تماماً، ويُعدُّ مصداقاً بارزاً لـ «التصلُّب السلبي».

فمثلاً؛ تُعتبر الأحكام الفرعيَّة وغير الضروريَّة في الدين والتي تنخرط في نطاق عمل «الاجتهاد» من الأحكام القابلة للتغيير، ويمكن أن يطرأ عليها تبدُّل وتغيُّر بمجرَّد «الحصول على أدلَّة جديدة». وهذا أيضاً يشمل تصوراتنا ومقدار ما فهمناه من الأُصول الثابتة والعقائد الدينيَّة الخالدة، فكلُّها تنطوي على إمكانية التكامل والإصلاح.

والآن، إذا افترض شخص ما أن الفتاوىٰ السابقة والتصورات السائدة في الماضي ثابتة ومسلّم بها وأزليَّة خالدة، وأيَّ عدول عن الفتاوىٰ او تكميل التصوُّر والفهم السابق للعقائد والأجكام وإصلاحها ممنوعاً، فمن البديهي أنه يُعَدُّ مصداقاً بارزاً لـ «التصلُّب السلبي».

وطبعاً فإنَّ القُرّاء الأعزّاء يعلمون أنَّ «ما تقدَّم من الاعتقادات والآراء الحاسمة والمبرهنة» غير قابلة للتغيير والتبديل إلّا بعد ظهور معطيات جديدة ومستجدّات مبنية على «الدليل والحجّة الشرعيَّة» وليس على أساس الظن

والتصوُّرات الخاطئة وغير المستندة الى الدليل والمنطق.

وعلى أية حال فان المقصود من «التحجُّر» في هذا البحث هو «التصلُّب السلبي».

* انواع التحجّر:

للتحجر ــ كما هو شأن الالتقاط ــ أنواع مختلفة وأنماط شتىٰ، ويمكن تقسيم انواع التحجُّر من زاويتين: فهناك «تحجر» على أساس «المظهر الخارجي» ولهذا التحجر ثلاثة انواع:

١ـ التحجُّر في العقيدة:

في هذا النوع من التحجر تمتنع العقائد عن تقبُّل أيِّ مرونة، وترفض أي نمط من الأفكار والتصوُّرات الجديدة. وجليٌّ أنَّ المراد من العقائد هنا؛ الفهم المستخلَص من الاصول العقائديَّة للدين لا نفس تلك الاصول.

٢ـ التحجُّر في العلم:

إن العلوم بشكل عام ــ سواء العلوم الطبيعيَّة التجريبيَّة أو الانسانية او الدينية ــ تقبل التغيير والتبدُّل مثلما نعرف. وحتى المعطيات والاكتشافات العلميَّة البشريَّة في حقل العلوم الطبيعية التي كان يُنظر إليها وكأنها (القانون) يوماً ما نُقضت ونُحِّيت جانباً بواسطة الاكتشافات الجديدة، ولذلك فانَّ إحدىٰ مميِّزات العلوم الطبيعيَّة «قابليتها للنقض والإبطال».

ومن باب اولىٰ، فإنَّ العلوم الانسانيَّة والعلوم الدينيَّة كعلم الفقه، والاصول، والمنطق، والفلسفة وغيرها تنطوي على إمكانية التغيير وقابليَّة التبدُّل أكثر من غيرها.

والمراد من التحجُّر في العلم هو أن نكتفي بمعطياتنا ومنجزاتنا العلمية، ونعتبرها جازمة ونهائية ومفروغ منها ونسدّ أيَّ باب للتكامل والتطوُّر في مجال العلوم.

وعلى سبيل المثال؛ إن «انسداد باب الاجتهاد» يُعتَبر من المصاديق

البارزة في تاريخ المذاهب الإسلاميّة لـ «التحجُّر في العلم» ذلك لأنّ النتائج العلميّة والمعطيات الاجتهاديّة لأفراد معيّنين اعتُبِرت من المسلّمات والحقائق النهائيّة وأُوصِدَ الباب أمام أيّ شكل من أشكال التكامل والاجتهاد الجديد.

٣ــ التحجر في العمل:

المراد من التحجُّر في العمل هو ان نفترض سلوكاً وسيرة عمليّة خاصّة (ممّا يقبل التغيير والتبدُّل) أمراً ثابتاً وقاعدة جازمة، ونعارض أيّ تغيير او تكامل او إصلاح يُراد إدخاله على هذا السلوك العملي. ومثال ذلك؛ أن فرداً ما طفق يؤدي عباداته بطريقة خاصة، ومع استمراره على ذلك وتطبُّعه عليه فترة طويلة أخذ يعتبرها من المسلّمات، على الرغم من أنها تنطوي على مؤاخذات وإشكالات، بَيدَ أنه يرفض أيّ تغيير ــ حتى لو كان صحيحاً ومنطقيّاً ــ على أُسلوب أدائه للعبادات، لكونه يتصف بالتحجُّر وفقدان المرونة.

وللتحجر نوعان آخران اذا ما نظرنا إليه من زاوية أُخرىٰ، وهما:

١ــ تحجُّر العوام:

المقصود من التحجر عند العوام؛ تصلُّب الناس العاديين وفقدان المرونة لدىٰ الاشخاص الذين يتصفون بمستوىٰ معين من الادراك والمعرفة يجعلهم يُعَدّون من عامّة الناس.

وعادة مايكون تحجُّر العوام من نوع التحجُّر في العقيدة وفي العمل ــ أي من النوعين الاول والثالث ــ في الأعم الأغلب.

٢ــ تحجُّر الخواص:

والمقصود بالخواص هنا غالباً هم العلماء والزهاد والعبّاد وكلُّ الذين يمتازون عن الناس العاديين بصفة معيَّنة (ذات علاقة بالامور الدينيّة والعلميّة).

ويصدق بشأن هذه الفئة كلُّ واحد من انواع التحجُّر الثلاثة: العقائدي والعلمي والعملي.

***ثانياً:**

جذور التحجُّر واسبابه

على الرغم من أن للتحجُّر جذوراً واسباباً مختلفة، إلّا أننا نستطيع ــ عبر دراسة عامّة ونظرة إجمالية ــ تحديد اثنين من الجذور والعلل من بينها باعتبارهما منشأ التحجُّر في الغالب:

١ــ الجهل وعدم المعرفة:

والجهل نوعان: جهل بسيط وجهل مركّب. فالاول يعني الجهل الذي يعرف صاحبُه أنه جاهل. وعادةً ما يكون هذا الجاهل غير متعصِّب بالنسبة للشيء الذي يدري هو بأنه لا علم له به ولا اطلاع لديه عنه، وفيما اذا كان من ذوي حبِّ الاطلاع فإنه يسعىٰ وراء التعرُّف عليه وفهمه.

إما في حالة الجهل المركَّب، فإنَّ صاحبه لا يعلم موضوعاً ما وهو لا يدري أنه لا يعلم شيئاً عن ذلك الموضوع، وهو يعتقد أن ما يعلمه عن أمر ما هو الحقّ وهو ــ في الحقيقة والواقع ــ جاهل بذلك الامر، فما يتصوره أنه علمٌ ــ اذن ــ انما هو وَهْمٌ ليس إلّا.

وان الذي يُعتَبَر خطيراً على الانسان هو نفس هذا الجهل المركّب، وهذا الجهل يُعتَبَر ــ في حدِّ ذاته ــ أحد جذور التحجُّر. ذلك أنَّ الفرد المتحجِّر يعتقد أن ما في تصوُّره هو العلم، ثمَّ يجزم به وبالنتيجة فإنَّه يبدي حسّاسية مفرطة تجاه

أيّ إصلاح أو تكميل او دعوة للاقلاع عنه، أي أنه يتعصّب لرأيه رغم تنبيهه على خطأ هذا الرأي. وقد وصف الشاعر مثل هذا الشخص بقوله:

ان من لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم

لسوف يبقىٰ مدىٰ الدهر في جهل مركّب(*).

وحينما يبقى ذو الجهل المركَّب دائماً في جهله ــ بتصوُّر أنه علم ــ فهذا هو الجمود والتحجر. إذن فالجذر الاول لـ «التحجر» و «الجمود» هو الجهل المركّب. وغالباً ما يكون التحجُّر عند العوام والناس العاديين منشؤه هذا الأمر (قلنا «غالباً» لأنَّ من الممكن أن يُبتلىٰ العلماء والخواصّ بالجهل المركّب بموضوع ما ــ أحياناً ــ وبالتالي يؤدّي ذلك إلى التحجُّر والجمود).

٢ــ الغرور والتكبُّر:

و «الغرور» هو الجذر الثاني للتحجُّر. وهذا النمط من التحجر ــ الذي غالباً ما يصدق على أهل العلم وخواصّ الناس ــ منشؤه التكبُّر والإعجاب بالنفس لدىٰ المرء. والمتحجّر هنا على اطّلاع ومعرفة كاملة بخطأ تصوُّره وخَطَل رأيه، لكنَّ غروره لا يسمح له بالاعتراف بهذا الخطأ وإصلاح تصوُّره. وربّما يعتقد هذا الصنف من المتحجّرين أنه اذا ما اعترف بخطئه وغيّر رأيه فإنَّ ذلك يمسُّ كبرياءه ويجعل أُبّهته العلميّة عُرضةً للتساؤل والشكّ عند الناس.

ولربّما تحصل هذه الحالة حتىٰ باللاشعور وبشكل غير محسوس، أي أنَّ الشخص ذاته يقدم لنفسه التسويغات والتوجيهات المعقولة ليقنع نفسه بأنَّ عدم قبوله للحقّ ورفْضَه للحقيقة له أسباب علميّة، إلّا أنّه ما يلبث أن يعرف ــ لو رجع إلى ضميره ووجدانه وفكّر مع نفسه ــ أنه لا سبب لذلك غير الغرور والتكبّر، وهذا طبعاً يُعتبر ــ إلىٰ حدّ ما ــ جهلاً مركّباً أيضاً!

---

*ــ تُرجم البيت الشعري بالمعنىٰ دون مراعاة الوزن الشعري للمحافظة علىٰ الدقة والأمانة في الترجمة ــ المترجم.

* ثالثاً:

الجذور التاريخيّة للتحجُّر

إن للأفكار القشريّة والسطحيّة الموجودة لدى الشيعة جذوراً تعود إلى بعض التيّارات والظواهر التاريخيّة المتحجّرة، وقد كان لتلك التيّارات أثرٌ في ظهور آراء وأفكار جامدة بين الشيعة بشكل مباشر وغير مباشر. ولا يتسنّى التعرُّف على كنه الجمود والسطحيّة والقشريّة إلا من خلال معرفة جذورها التاريخيّة. ولذلك فإنّنا سنتناول بالبحث هنا ثلاث فئات محدّدة كان لها دور مهمٌّ في ايجاد ظاهرة القشريّة، وهي: فئة الخوارج والأشعريّة والاخباريّة.

١ ـ مذهب الخوارج:

ربّما كان الخوارج أوّل مصداق للتحجُّر والجمود في تاريخ الاسلام، وهم أول من وضع أساس هذا النمط من التفكير بين صفوف المسلمين. وطبعاً فإنَّ مدرسة الخوارج لا وجود لها اليوم بشكل مشخّص، بَيدَ أن طريقة التفكير السائدة في هذه المدرسة مازالت موجودة، والتحجُّر الموجود حالياً في بعض الأذهان يستمدُّ كنهه من تعاليم تلك المدرسة بشكل مباشر وغير مباشر. ولقد كتب **الاستاذ الشهيد المطهري** في هذا المضمار قائلاً:

«إن مدرسة الخوارج لم تكن مدرسة بوسعها أن تبقى قائمة ولكن هذه المدرسة أبقت لها أثراً يمكن أن نجده سائداً في الأفكار

والعقائد العائدة للخوارج والمتسللة إلى الفرق الاسلامية.

وهناك الآن كثير من أمثال أصحاب النهروان، وكما كانوا على عهد علي(ع) فإنّهم يعتبرون من أخطر أعداء الإسلام في الوقت الحاضر. مثلما أن أمثال **معاوية وعمرو بن العاص** كانوا ــ وما يزالون كذلك ــ موجودين دائماً وهم يستفيدون من وجود أمثال أصحاب النهروان ــ الذين يُعدُّون أعداءهم ــ في الفرصة المناسبة».(٧٢)

ويرى (رض) أن روح مذهب الخوارج ما زالت حيّة فيقول:

«إنَّ مذهب الخوارج مذهب ميِّت هذا اليوم، أي ليس هناك فوق الكرة الارضيَّة فئة تسترعي الانتباه باسم الخوارج تضمُّ اعضاء وأتباعاً يسيرون وفق أفكارها، ولكن هل **إن** روح مذهب الخوارج ميّتة هي الأُخرى؟ ألم تحلَّ هذه الروح في أتباع مذاهب أُخرى؟ وهل إن هذه الروح غير موجودة ــ لا سمح الله ــ فيما بيننا نحن وخصوصاً الطبقة التي تُدعى بـ(المتظاهرين بالقدسيّة) ».(٧٣)

ولهذا السبب فمن الضروري أن نتعرَّف على ظاهرة الخوارج وملامحها وصفاتها. فالنضال ضدَّ التحجُّر ليس ممكناً بدون التعرُّف عليه، فبدون التعرُّف على حقيقته نكون كمن يعرف أن له عدوّاً ولكنّه لا يعرف من هذا العدو واين هو وما هي صفاته؟

إن الاستاذ الشهيد يبحث في كتابه (الجذب والدفع في شخصيَّة **عليّ (ع)**) ظاهرة الخوارج بالتفصيل. وابتداءً ينبغي أن نقول: إن الخوارج(٧٤) قد ظهروا إلى الوجود خلال معركة صفّين.

في اوج احتدام القتال في معركة صفّين بين جيش **الامام علي(ع)** وجيش

٧٢ــ الجذب والدفع في شخصية علي (ع)/ص (١٣١و١٣٢).

٧٣ــ المصدر نفسه/ص ١٤١.

٧٤ــ الخوارج كلمة تعني «المتمردين» وهي من مشتقات «الخروج».

معاوية كاد الجيش الإسلامي أن يحقّق الانتصار النهائي، وأوشك **معاوية وعمرو ابن العاص** أن يقعا في أسر القوات الاسلاميّة، وفي هذا الحين بادر **معاوية** ــ بعد التشاور مع **عمرو بن العاص** ــ إلى حيلة خبيثة للحيولة دون اندحار جيشه، إذ أمر قواته برفع المصاحف على رؤوس الرماح واقترح «تحكيم القرآن» في اللّحظات الأخيرة للمعركة، ليخدع القوات الإسلاميّة ويمنعها من الاستمرار في القتال، وبهذه الطريقة يتمكّن في إيجاد الفرقة وزرع التشتت في صفوف جيش **أمير المؤمنين علي** (ع).

وقد نجحت حيلة **معاوية** هذه وأعلن عدد من افراد قوات **علي** (ع) أنهم لن يقاتلوا القرآن!

إن امتناع هؤلاء الحفنة من الجهلة والسطحيين عن مواصلة الحرب ضد **معاوية** بل وتهديدهم **لعلي** (ع) بالقتل إذا لم يوقف القتال قد أدّى إلى خلاص جيش **معاوية** من هزيمة حتمية واندحار ذريع.

وخلال اختيار الحَكَمين، فرض هؤلاء المخدوعون بحيلة «التحكيم» **أبا موسىٰ الاشعري** ليكون مفاوضاً من قِبل جيش **الامام علي** رغم اعتراضه (ع) على اختيار **الاشعري**.

وهكذا فان **أبا موسىٰ** ــ الذي كان شيخاً يفتقد حسن التدبير ــ انخدع هو الآخر بحيلة **عمرو بن العاص** (ممثل **معاوية**) وخلع **علياً** (ع) عن الحكم. إلّا أن نفس تلك الفئة وبعد أن شاهدت ماآلت إليه نتائج عملية التحكيم ندمت على ذلك ومارسوا ضغوطاً على الامام علي (ع) قائلين إننا قد أذنبنا وأنت أيضاً أذنبت لأنّك قبلت بذلك! فعلينا كلُّنا اذن أن نتوب!

اما أمير المؤمنين فقد رفض منطقهم هذا وقال ــ ما مضمونه ــ: انكم انتم الذين فرضتم عليَّ التحكيم، ثم كيف نعتبر أمراً ما ذنباً اذا كان مشروعاً. ولذلك فقد أبىٰ التوبة، ومن هنا ظهر الخوارج.

وهذه الفئة التي انخدعت في حرب صفين تحولت إلى فرقة خرجت على **عليّ** (ع) وتمردت عليه ولهذا السبب فقد سُمِّيت بـ «الخوارج». وشيئاً فشيئاً

صارت فرقة الخوارج مدرسة فكريّة ذات أُصول عقائديّة خاصّة. ويوضح **الاستاذ الشهيد المطهّري** في كتاب «الجذب والدفع في شخصية **علي** (ع)» اصول عقائد الخوارج فيقول:

«تقوم مدرسة الخوارج على عدّة أُسس هي:

١ــ تكفير **عليّ وعثمان ومعاوية** وأصحاب الجمل وأصحاب التحكيم ــ الذين وافقوا عليه ــ عموماً، ماعدا اولئك الذين وافقوا على التحكيم ثمّ تابوا.

٢ــ تكفير الاشخاص الذين يقولون بكفر **علي وعثمان** والآخرين الذين كنّا قد ذكّرنا بأن عليهم التنحّي جانباً.

٣ــ إنّ الايمان ليس اعتقاداً قلبيّاً وحسب وانّما هو العمل بالاوامر وترك النواهي، وهذا من صُلب الايمان. فالايمان امر مركّب من العقيدة والعمل.

٤ــ وجوب الثورة والتمرّد على الوالي والامام الجائر دون أي شرط. فهم يزعمون أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ليسا مشروطين بشيء ويجب تنفيذ هذا الامر الإلٰهي دائماً وفي كلّ مكان دون استثناء.(٧٥)

ــ وبهذه ــ العقائد فإنّ هؤلاء استيقظوا صباحاً فوجدوا ــ طبقاً لعقائدهم ــ أنّ جميع الناس الموجودين في الكرة الارضيّة كفرة، فاعتبروهم مهدوري الدم ومخلّدين في النار».(٧٦)

وهكذا تتضح بعض خصائص الخوارج ومميزاتهم طبقاً لأُصول عقائدهم، ولكن **الاستاذ الشهيد المطهّري** يفرد حديثاً خاصاً لخصائصهم الفكريّة والأخلاقيّة والعمليّة. ويذكر الاستاذ أربع خصائص أو مميّزات لهذه الفئة نشير

٧٥ــ ضحى الاسلام/الجزء ٣/ص ٣٣٠ نقلاً عن كتاب (الفَرق بين الفِرق).

٧٦ــ الجذب والدفع في شخصية علي (ع)/ص ١٢٤و١٢٥.

إليها هنا بشكل إجمالي:

«١ــ كانت لديهم ميول شديدة نحو النضال والفداء والتضحية، وكانوا مستميتين في سبيل عقائدهم وأفكارهم». (٧٧)

وطبعاً ينبغي أن نذكّر أن هذه الصفة لم تكن موجودة عند الخوارج كلّهم، بل إنَّ الروّاد الأوّلين والمؤسسين لهذا الاتجاه الفكري هم الذين تميَّزوا بها.

«٢ــ كانوا أناساً متعبِّدين ومتنسِّكين، يمضون الليل في العبادة. وليست لديهم رغبة او اقبال نحو الدنيا وزخارفها.. وكانوا مقيّدين بأحكام الاسلام ملتزمين بمظاهره بشكل تام ولا يقترفون ما يعتبرونه ذنباً أبداً». (٧٨)

وربّما يمكننا أن نعتبر الصفتين المذكورتين آنفاً الشيء الايجابي الوحيد الذي يمتاز به الخوارج، بَيدَ أن هناك خصائص أُخرىٰ تضاف إليهما ولأننا نراها مترابطة مع تينك الصفتين فإن بامكإننا القول إن تينك الصفتين ايجابيتهما في ضوء بقية الخصائص وتترتَّب عليهما تبعات سلبية وآثار سيئة:

«٣ــ كان الخوارج أُناساً جاهلين وحمقىٰ، ونتيجة لجهلهم فانهم لم يكونوا يفهمون الحقائق ويفسِّرونها تفسيراً سيِّئاً، وهذا الفهم المنحرف صار لهم مذهباً رويداً رويداً. وقد بذلوا اعظم التضحيات وقدَّموا أكبر القرابين من أجل تثبيته وترسيخه». (٧٩)

وهذه الميزة لا تُعتبر ــ في حدِّ ذاتها ــ إحدى أكبر المؤاخذات والسلبيّات التي تتميَّز بها جميع الرؤى المتحجِّرة (ومن بينها الخوارج) فحسب وإنَّما تترتَّب عليها ــ من جهة أُخرى ــ أخطار كثيرة كذلك. ويتحدث **الاستاذ الشهيد المطهّري** عن ذلك فيقول:

٧٧ــ المصدر نفسه/ص ١٤٥.

٧٨ــ المصدر نفسه/ص١٤٦.

٧٩ــ المصدر نفسه/ص١٥١.

«إنَّ الخطر الذي يترتَّب على جهل أمثال هؤلاء الأفراد والفئات يأتي من ناحية أنهم يصبحون آلات وأدوات في أيدي الأذكياء والماكرين فيتحوَّلوا إلى عقبة في طريق المصالح الاسلاميّة العليا. وعلى الدوام، فإنَّ المنافقين الزنادقة يسخّرون المقدَّسين الحمقى ويحرِّضونهم ضدَّ الاسلاميَّة. هؤلاء المقدَّسون الحمقى ما يلبثون أن يتحوَّلوا الى سيف في يد المنافقين وسهماً في كبد قوسهم». (٨٠)

ثم يذكر **الاستاذ الشهيد المطهّري** الميزة الرابعة للخوارج فيقول:

«٤ــ إنَّ الخوارج أُناس ذوو نظرة ضيِّقة وقصيرة المدى ويفكِّرون في أُفق واطئ جداً. كانوا يرون الاسلام محصوراً في جدران أربعة من أفكارهم الضيّقة، شأنهم شأن جميع قصيري النظر. لقد كانوا يدّعون أنَّ كلَّ من عداهم سيِّئوا الفهم أو أنهم لا يفهمون شيئاً البتة، ويعتقدون أن جميع من سواهم يسيرون في سبيل معوجّ وكلّهم من أهل جهنّم». (٨١)

وهنا ينبغي إلفات النظر الى انعكاسات مذهب الخوارج على بقيَّة الفرق والمذاهب الإسلاميَّة. صحيح أنَّ مذهب الخوارج كان يوجد في عصر صدر الاسلام وفي عهد حكم **أميرالمؤمنين الامام علي** (ع) ولكنْ ــ على أية حال ــ فإنَّ القرائن والأدلّة تشير الى أن بقيّة الفرق الإسلاميَّة قد تأثَّرت هي الأُخرى بتلك الفئة.

يقول **الاستاذ المطهّري** في هذا الصدد:

«إنَّ التعمُّق في دراسة قضيَّة الخوارج يُعتَبر أمراً مهمّاً بالنسبة لنا من حيث إنَّ ذلك ضروريٌّ لكي نفهم مدى الأثر الذي تركوه في التاريخ الإسلامي من الناحية السياسية، ومن حيث العقيدة والذوق

٨٠ــ المصدر نفسه/ص١٥٥.

٨١ــ المصدر نفسه/ص١٥٧.

أو العرف وعلى صعيد الفقه والأحكام.

فنمط تفكير الخوارج وروح أفكارهم ــ اللّذان يتميَّزان بالجمود الفكري وفصل التعقُّل عن الدين ــ تسلّلا ونفذا الى داخل المجتمع الاسلامي طوال التاريخ الإسلامي.

وعلى الرغم من أنَّ سائر الفِرق تَعتبر نفسها مخالفة لهم، بَيدَ أنَّ التفكير السائد عند الخوارج سائد في اذهان هذه الفرق أيضاً.

ويمكننا أن نرى بين المدارس الفكريَّة والعقائديَّة والعلميَّة الاسلاميّة ومن بين النظريّات الفقهيَّة كذلك مدارس ونظريّات تعتقد بانفصال التعقُّل عن التديُّن، وعلى وجه الدقّة فإن فحوى تلك الاتجاهات يقوم على مرتكزات التفكير الخوارجي». (٨٢)

ولهذا السبب فمن الضروري دراسة هذه التيّار ــ الخوارج ــ والتعمُّق في بحث الشؤون المتعلِّقة به بدقَّة وإمعان نظر، باعتباره أوَّل مصداق تنظيمي ومذهبي لمفهوم «التحجُّر» وبعبارة أُخرى؛ باعتبار أنه مُنطلَق لـ «تخطئة العقل» ومصداق لـ «الجمود» في المذاهب الإسلاميَّة، وسنتطرّق فيما بعد الى هذا الموضوع مرَّة أُخرى.

٢ــ مذهب الاشاعرة:

الاشعرية تيار مذهبي آخر تابعَ نمط التفكير المتميّز بـ «الجمود والسطحيَّة» في العالم الاسلامي. وأساساً فإنَّ ظهور مذهب «الاشعريَّة» او «الاشاعرة» قد حصل إثر الخلافات التي ثارت بين فرقتَي «المعتزلة» و «أهل السنَّة». وهكذا وقع مذهب «الاشعريَّة» ــ الذي كان أساساً نحلة كلاميَّة ــ تحت تأثير «أهل السنّة» ونما وترعرع في ضوء هذا التأثير.

الاستاذ المطهّري يتحدَّث عن الخلافات بين «المعتزلة» و «أهل السنّة» وظهور مكتب «الأشاعرة» فيقول:

٨٢ــ المصدر نفسه/١٦٥و١٦٦ (الهامش).

«كانت للمعتزلة رغبة عميقة في فهم الاسلام وتبليغه ونشره والدفاع عنه في مقابل الدهريين واليهود والنصارى والمجوس والصابئة والمانويّة وغيرهم، بل إنّهم قاموا بإعداد المبلّغين وإيفادهم الى مختلف الأنحاء والبلدان.

وفي الوقت ذاته فقد كانوا مهدّدين من داخل الحوزة الاسلاميّة بواسطة القشريّين أهل الظاهر الذين يسمّون أنفسهم «أهل الحديث» و «أهل السنّة» وأخيراً فقد طُعِنوا بخنجر من الخلف وضعفوا وانقرضوا تدريجيّاً.

وعلى هذا، في بداية الامر لم يكن ثمة مذهب كلامي معارض للمعتزلة حتى حوالي أواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع بالشكل الذي ظهر فيه فيما بعد.

كانت كلُّ الاعتراضات تجري بذريعة أن أفكار المعتزلة تتعارض وظواهر الحديث والسنّة. وكان رؤساء أهل الحديث أمثال **مالك بن أنس وأحمد بن حنبل** يرون ــ أساساً ــ أن البحث والتحليل والاستدلال في القضايا الايمانيّة حرام. إذن فأهل السنّة لم يكونوا يفتقدون إلى مذهب كلامي في قبال المعتزلة فحسب وإنّما كانوا ينكرون الكلام والتكلّم(*) ومذهب القائلين بهما.

وحوالي آواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع الهجري حصلت ظاهرة جديدة وهي أنَّ شخصيّة بارزة وعالمة كانت قد درست الاعتزال عند **القاضي عبدالجبار المعتزلي** وأصبحت مجتهدة فيه وذات رأي متميز؛ هذه الشخصيّة أعرضت عن الاعتزال وأخذت تميل إلى مذهب أهل السنّة. ولأنَّ ذلك الشخص كان ذا حظٍّ من النبوغ من جهة، ومن جهة أُخرى كان قد بلغ مرحلة الاجتهاد في

---

*ــ بالمعنى الاصطلاحي طبعاً ــ المترجم.

مذهب الاعتزال، فقد قام ببناء جميع أُصول أهل السنّة على أُسس وركائز استدلالية خاصّة، وكوّن منها مذهباً فكرياً يتميّز بالدقّة إلى حدٍّ ما. تلك الشخصية البارزة هي **ابوالحسن الاشعري** المتوفى حوالي عام ٣٣٠ هجرية». [٨٣]

وبعد أن يستعرض آية الله **الشهيد المطهّري** لمحة تاريخيّة عن كيفيّة ظهور مذهب «الاشعريّة» يقوم (ره) بذكر أُصول عقائدهم فيقول:

«**ألف**: عدم اتحاد الصفات مع الذات[*] خلافاً لرأي المعتزلة والفلاسفة.

ب: عموميّة الإرادة والقضاء والقدر الإلٰهي في جميع الحوادث (وهذا هو الآخر يخالف رأي المعتزلة بَيدَ أنه موافق لرأي الفلاسفة).

ج: إنَّ الشرَّ والخير كلاهما من قبل الله (وطبعاً فان هذا الرأي يُعتبر ـ برأي الاشعريّة ـ من لوازم الرأي الوارد أعلاه).

د: إنَّ البشر ليس مختاراً وإنَّ أعماله مخلوقة من قبل الله (وهذا الرأي هو الآخر من لوازم نظريّة عموميّة الإرادة المذكورة تواً حسب رأي الأشعريّة).

هـ: إن حُسن الأفعال وقُبحها ليس ذاتياً بل هو شرعي، كما أن العدل شرعيٌّ وليس عقلياً (خلافاً لرأي المعتزلة).

و: إنَّ رعاية اللُّطف (بالعباد) والأصلح (لهم) ليس واجباً على الله (خلافاً لرأي المعتزلة).

ح: التنزيه المطلق يعني عدم وجود أيِّ تشابه او تماثل بين الله وماسواه (خلافاً لرأي المعتزلة).

ط: إنَّ الانسان ليس خالقاً لأعماله بل هو مكتسب لها

٨٣ـ التعرف على العلوم الاسلامية/ص١٦٨و١٦٩.

*ـ أي اتحاد الصفات الإلٰهية مع الذات الإلٰهية ـ المترجم ـ.

(وهذا تسويغ وتأويل لرأي اهل السنّة في باب خلق الأعمال).

ى: إنَّ الله يُرىٰ بالعين يوم القيامة (خلافاً لرأي الفلاسفة والمعتزلة).

يا: إنّ الفاسق مؤمن (خلافاً لرأي الخوارج الذين يقولون بكفر الفاسق، وخلافاً لرأي المعتزلة ـ كذلك ـ الذين يدعون أن حكم الفاسق امر بين أمرين).

يب: لا إشكال في غفران الله ذنوب عبد وإن لم يتُب، كما لا إشكال في تعذيب المؤمن (خلافاً لرأي المعتزلة).

يج: لا إشكال في الشفاعة (خلافاً لرأي المعتزلة).

يد: إن العالم حادث زماني (خلافاً لرأي الفلاسفة).

يو: إنّ كلام الله قديم ولكنه كلام نفسي وليس لفظياً (تسويغ رأي أهل السنّة).

يز: إنَّ أفعال الله لا غاية لها ولا غرض (خلافاً لرأي الفلاسفة والمعتزلة).

يح: إن التكليف بما لا يُطاق لا مانع منه (خلافاً لرأي الفلاسفة والمعتزلة)».[٨٤]

كانت هذه اصول عقائد «الأشاعرة» كما يذكرها الاستاذ الشهيد **آية الله المطهّري**. واذا انتبهنا إلى اصول العقائد المذكورة فيما سلف وتأمّلناها لوجدنا أكثرها يتصف بالنزعة الظاهرية[*] والنظرات السطحية والجمود وركود العقل والتعقُّل. وعلى الرغم من أن العقائد المذكورة آنفاً تُشاهَد غالباً في الناحية الكلاميّة ولكنَّ هذا النمط من التفكير وهذا الشكل من الرؤية يمكن مشاهدته في بقية أركان هذا المذهب أيضاً. ويتحدث **الاستاذ الشهيد المطهّري** عن تأثيرات

٨٤ـ التعرف علىٰ العلوم الإسلامية/ص ١٧٠و١٧١.

*ـ الاهتمام بالظاهر دون الجوهر والمضمون ـ المترجم ـ.

أفكار «الأشاعرة» في العالم الإسلامي فيقول:

«مما يؤسَف له أنَّ أبا الحسن **الاشعري** يُعتبَر من الأشخاص الذين كان لأفكارهم تأثير كبير في العالم الإسلامي. وقد حصلت ــ طبعاً ــ مناقشات كثيرة لكلماته فيما بعد من قِبل الفلاسفة والمعتزلة.. وقد كلّف انتصار مذهب الأشعريَّة العالمَ الاسلاميَّ ثمناً باهضاً، إذ مثّل هذا الانتصار، انتصاراً للجمود والقشريَّة والسطحيَّة على حرية الفكر. وعلى الرغم من أن حرب الأشعرية والاعتزال تخصُّ عالم أهل السنّة ولكن العالم الشيعيَّ ظهرت عليه ــ هو الآخر ــ بعض بوادر الجمود الأشعري وملامحه ولم يسلم منها». (٨٥)

ويعتقد **الاستاذ الشهيد المطهّري** أن مذهب الأشاعرة ــ شأنه شأن مذهب الخوارج ــ حلقة في سلسلة المذاهب والنِّحل التي يقوم بناؤها على اساس الجمود والقشريَّة وتعطيل العقل وكان لها تأثير مهم في المذاهب الاسلاميَّة الأُخرى. ويتحدث **الشهيد المطهّري** بايجاز واقتضاب عن تحجُّر الاشاعرة وآثاره فيقول:

«خلال فترة القرن ونصف القرن من عمر مذهب الاعتزال العقلي مرت على هذا المذهب تغيرات طارئة وأحداث عجيبة حتى آلت الامور إلى ظهور مذهب الأشاعرة فأنكروا ــ مرة واحدة وبشكل كلي ــ قيمة التفكير والأفكار العقليَّة المحضة والحسابات الفلسفيَّة الخالصة. ولقد ادعوا أن من واجب المسلمين أن يكتفوا ــ تعبُّداً ــ بظاهر التعابير المرويَّة وألّا يتفكَّروا ويتدبَّروا في أعماق المعاني. وأيّ سؤال وجواب وتأويل وتوجيه يُعتبَر ــ بنظرهم ــ بدعة. لقد كان الإمام **أحمد بن حنبل** ــ وهو أحد أئمة أهل السنّة الأربعة ــ يعارض

---

٨٥ ــ المصدر نفسه/ص١٧١و١٧٢.

نمط التفكير السائد لدى المعتزلة بشدة، حتى أنه أُلقي في السجن وتعرَّض للجَلد بالسياط ولكنَّه استمر في معارضته تلك.. وأخيراً انتصر الأشاعرة وطووا بساط التعقُّل جانباً وأغلقوا باب إعمال العقل، ووجّه هذا الانتصار ضربة كبيرة للحياة العقليَّة في العالم الإسلامي» .[86]

٣ـ مذهب الاخباريين:

يعتبر مذهب الاخباريين أقرب إلينا زمنياً بالمقارنة مع الخوارج والأشعريَّة. فالاخباريّون هم الذين يجعلون من الأخبار والأحاديث محوراً لعملهم وتوجُّهاتهم، ويرفضون بقيَّة الأدلَّة الشرعيَّة مثل الكتاب والاجماع والعقل، وهم يطرحون حجيَّة الأخبار والروايات بنحوٍ خاص. إذ إنهم يَعتبرون جميع الأخبار والروايات صحيحة سواء الضعيف منها والقوي والصحيح والمختلَق الموضوع، بل ويَعتبرون ظاهرها هو المقياس والملاك . ويمكن اعتبار الاخبارية من توابع وبقايا مذهبَي الخوارج والاشعريَّة، ذلك لأنها تشترك جميعاً في مبدأ واحد وأساس مشترك وهو «القشرية» والسطحيَّة وتخطئة العقل والتفكُّر ورفضها. ويمكن التعرف على كيفية ظهوره مما قاله **الشهيد المطهّري**:

«لم يمض على مذهب الإخباريين أكثر من أربعة قرون. ومؤسس هذا المذهب شخص يُدعى **الملّا أمين الاسترآبادي** الذي كان شخصاً ذكياً، وله أتباع ومريدون كثيرون من الشيعة. بل إنَّ الإخباريين أنفسهم يدّعون أنَّ قدماء الشيعة كانوا حتى زمان **الصدوق** من أتباع النهج الإخباري، إلّا أنَّ الحقيقة هي أنه لم تمض سوى أربعة قرون على ظهور الإخبارية كمذهب له سلسلة من الاصول المحدَّدة والمعيَّنة والتي تُنكِر حجية العقل وحجّية القرآن وسنديَّته بذريعة أن فهم القرآن قد اختُصَّ به اهل بيت النبي وحسب، وأن

٨٦ــ الجذب والدفع في شخصية علي (ع)/ص١٦٧.

واجبنا هو الرجوع والاستناد إلى أحاديث اهل البيت ورواياتهم، وكمذهب يقول بأنَّ الاجماع هو بدعة أحدثها أهل السنّة. اذن فمن بين الأدلّة الأربعة أي الكتاب والسنّة والاجماع والعقل يعتبرون السنة وحدها حجّة، كما أن هذا المذهب يدّعي أن جميع الأخبار والروايات التي تتضمَّنها الكتب الأربعة (أي الكافي ومن لا يحضره الفقيه والتهذيب والاستبصار) صحيحة ومعتبرة، بل إن صدورها عن أهل البيت أمر مفروغ منه ولا نقاش فيه. والخلاصة إن هذا المذهب الذي يتضمَّن أُصولاً كهذه لم تمضِ على تأسيسه سوى أربعة قرون». (٨٧)

وأساساً فان مذهب الاخباريين كان قد ظهر في مقابل «الاجتهاد». ويعتقد أتباع مذهب الاجتهاد المعروفون بـ «الاصوليين» أن بالإمكان الاعتماد على الكتاب والسنّة والعقل والاجماع وبالاستناد الى الأُصول العقليّة القطعيَّة، لغرض استنباط الأحكام التي تقع موضعاً للحاجة في كلِّ زمن من متن الكتاب والسنّة.

وفي المقابل يعتقد «الاخباريون» أنّه بما أنَّ التمسُّك بالقرآن والاجماع والعقل ليس صحيحاً، فالاجتهاد ـ اذن ـ باطل، ونحن لا نملك حقَّ الاستنباط! وينبغي لنا الرجوع الى ظواهر الروايات والاكتفاء بها! وكل شخص مكلّف بالعمل وفقاً لمستوى فهمه لظواهر الروايات الموجودة!. وتعتبر معارضة الاجتهاد أهمّ صفة تميِّز مذهب الاخباريين، ويوضح **الاستاذ المطهّري** في هذا المضمار:

«إنّ مذهب الاخباريين ضدَّ مذهب الاجتهاد والتقليد. فهو ينكر تلك الصلاحيَّة والكفاءة والأهلية والتخصُّص الفني الذي يقول به المجتهدون. وهو يحرّم تقليد غير المعصوم، وطبقاً لرأي هذا المذهب فانه ما دامت الحجّية والسندية منحصرتين في الأحاديث، وان حق الاجتهاد وإعمال الفكر لا وجود له، فان على الناس الرجوع مباشرة

٨٧ـ عشر مقالات/أساس الاجتهاد في الاسلام/ص٨٣و٨٤.

الى النصوص والمتون والعمل بها!، ويجب أن لا يعدّ أيُّ عالم واسطة باعتباره مجتهداً ومرجعاً للتقليد!». [٨٨]

ان مخالفة مذهب الاخباريين للعقل تُعتبر ذات بروز خاص فيما بين عقائدهم، وهذا الموضوع ذاته أدى الى اعتبار هذا المذهب أحد المصاديق الكاملة لـ «الجمود» و «التحجُّر». ويذكر **الاستاذ الشهيد المطهّري** أمثلة في هذا المضمار من بين عقائدهم، والتطرق لها يُعدُّ مفيداً في التعرف على آرائهم. وينقل الاستاذ الشهيد أمثلة عن **آية الله وحيد البهباني** المشهور بـ (استاذ الجميع) وهو بطل النضال ضد الاتجاه الاخباري، فيقول:

«لقد بلغ الجمود بالاخباريين حدّاً بحيث إنه لو أن مريضاً ـــ مثلاً ـــ قد ذهب الى أحد الأئمة فنصحه ذلك الإمام بتناول ماء بارد؛ لقال الاخباريون لكلِّ مرضى العالم: متىٰ ما مرضتم وبأي علّة أُصبتم فعلاجكم في تناول الماء البارد، وهؤلاء لا يفكّرون ـــ بعدئذ ـــ بأن تلك النصيحة وذلك الامر كانا مختصّين بحال ذلك المريض فحسب لا كل المرضىٰ.

ومن المعروف أنَّ بعض الإخباريين كانوا يأمرون بكتابة الشهادتين على كفن الميِّت، ويكتبونها بهذا الشكل:

(**اسماعيل** يشهد أن لا إلٰه إلّا الله).

فلماذا يختصون الشهادة **باسماعيل** ويجعلون ذكرها ملازماً لاسمه؟ الجواب هو انه ورد في الرواية أن **الامام الصادق** (ع) كان قد كتب الشهادة بهذا التعبير على كفن ابنه **اسماعيل** حينما توفّي. فهؤلاء لم يكلّفوا أنفسهم عناء التفكير بمستوى أنه بما ان ابن **الامام الصادق** كان اسمه **اسماعيل** فقد كتب **الامام الصادق** تشهده مقترناً باسمه، أما الآن فاذا كان اسم الميِّت **(حسن قلي)** فلماذا لا

٨٨ـــ المصدر نفسه/ص٨٤.

نكتب تشهُّده مقترناً باسمه هو ونكتب اسم **(اسماعيل)** بدلاً عنه؟! إلا أن الاخباريين يقولون إنَّ هذا يُعدُّ اجتهاداً واتّباعاً للرأي واستناداً للعقل، بينما نحن من أهل التعبّد والتسليم، **وقال الباقر (ع) وقال الصادق (ع)**، فننفّذ ما يقوله الأئمة ولا نتدخل بشيء من عندنا»![89]

ويستنتج **الاستاذ المطهّري:**

«على أيّة حال؛ فإنَّ الاخباريين كانوا تيّاراً ضدَّ العقل، وتسود على هذا الاتجاه ملامح من الجمود والتحجُّر العجيبين».[90]

وهكذا يخرج بحصيلة نهائية هي:

«إنَّ مذهب الإخباريين يعتبر مذهباً فقهيّاً شيعياً وقد وصل أوج قوّته في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، وهو قريب جداً من مذهب أهل الظاهر والحديث من أهل السنّة، ومن حيث المنهج الفقهي يُعتبر كلا المذهبين ذا سلوك واحد مشترك، واختلافهما الوحيد انما هو في أيِّ الاحاديث ينبغي اتّباعها والعمل بها، من بين كلِّ هذه الروايات الموجودة. إنّه نمط من أنماط فصل التعقُّل عن التديُّن.

لقد طفق الاخباريون يعطّلون عمل العقل بشكل كلّي، وقد أنكروا أيّة قيمة للادراك العقلي في مضمار استخراج الأحكام الاسلاميَّة من مصادرها وأدلّتها، واسقطوا حجيَّة العقل، واعتبروا اتّباعه حراماً، وهاجموا الاصوليين ــ وهم أتباع المذهب الشيعي الآخر ــ بشدَّة في مؤلَّفاتهم وكتبهم، وما لبثوا يقولون إنَّ الكتاب والسنَّة وحدهما هما الحجة وحسب.

٨٩ــ المصدر نفسه/ص٨٩و٩٠..

٩٠ــ المصدر نفسه/ص٨٥.

وطبعاً فهم يشترطون حجيّة الكتاب بكون تفسيره قد جاء من طريق تفسير السنّة والحديث له، وفي الحقيقة انهم جرّدوا القرآن من صفة الحجيّة وأسقطوها عنه،ولم يُبقوا سوى ظاهر الحديث مما يمكن اتّباعه والعمل به ». (٩١)

مصير مذهب الاخباريين:

لقد هُزم المذهب الاخباري أخيراً بهمّة بعض الفقهاء الأجلّاء من الاصوليين. فقد خاض فقهاء، عظام **كآية الله الوحيد البهبهاني** صراعاً عنيفاً وكفاحاً مريراً ضدَّ هذا المذهب، في النجف الأشرف، مما أدى الى اندحار أفكار الاخباريين في مذهب الشيعة وهزيمتهم التامّة. كما أن **استاذ الفقهاء الشيخ مرتضى الأنصاري** (ره) كان من بين الذين لعبوا دوراً مهماً وكبيراً في اضمحلال التفكير الاخباري المتحجّر، نظَراً لما قام به هذا الفقيه من إرساء أُسس علم الاصول ودعائمه بشكل متقن ومحكم.

وطبعاً ينبغي الالتفات الى هذه النقطة وهي أن المحو الظاهريَّ والتلاشي المرئيَّ للمذهب الإخباريِّ لا يعني اجتثاث جذور هذا المذهب وزوال كلِّ الترسُّبات والرؤى الاخباريّة. فقد استطاع هذا النمط من التفكير ــ مع الأسف ــ أن ينفذ في بعض العقول المهيّئة والأذهان المستعدّة لتلقّيه في نفس العهد الذي كان رائجاً وشائعاً فيه، بحيث إنه مازال حتى اليوم موجوداً بين بعض الشيعة الى حدٍّ ما. يقول **الاستاذ الشهيد المطهري** في هذا الشأن:

«وطبعاً فإن المذهب الاخباري اندحر إثر هذه المقاومة، ولا يوجد له الآن أتباع ومؤيّدون، إلّا في الزوايا والخفايا، ولكن جميع أفكار الاخبارية تسنّى لها النفوذ والانتشار في العقول والاذهان بعد ظهور **الملّا أمين** وبقيت تلك الافكار سائدة ــ بشكل أو آخر ــ لمئتي عام؛ لم

٩١ ــ الجذب والدفع في شخصية علي (ع)/ص١٦٨.

تخرج من الاذهان ولم تغادر العقول. فانتم ترون الكثيرين الآن لا يرون تفسير القرآن جائزاً إن لم يكن هناك حديث او رواية في الاثناء. وجمود الاخباريين مازال سائداً في الكثير من القضايا الأخلاقية والاجتماعية، بل وحتى في بعض القضايا الفقهية». (٩٢)

وفي كتاب «الاسلام ومتطلّبات العصر» يقول الاستاذ:

«إنّ تيار الاخباريين ــ وهم فئة تحمل تعصُّباً أعمى للروايات والأخبار حتى أنهم يعتبرون الصحيح والضعيف كلاهما بمنزلة سواء ــ هو أحد التيّارات الفكريّة الخطيرة التي ظهرت في العالم الإسلامي ومن آثاره ومخلّفاته الجمود الفكري، وهو ذات الشيء الذي نحن به مبتلون الآن». (٩٣)

وأخيراً في كتاب «التعليم والتربية» يقول **الشهيد المطهّري**:

«ان أفكار الإخباريِّين لم تنمج ولم تندثر بعدُ، بل إنّها مازالت مشهودة لدى الكثير من المجتهدين، وما فتئت سائدة في أفكارهم». (٩٤)

وإضافة إلى الفئات المار ذكرها، يمكن الاشارة الى نموذجين آخرين ظهرا في العقود الأخيرة ويعتبران من مصاديق «التحجُّر» و«القشريَّة الدينية». وهما:

١ــ الحجتيون.

٢ــ الولايتيون.

ويتحدث **سماحة الامام الخميني «قدّس سرّه الشريف»** ــ في أحد بياناته التي وجّهها الى علماء الدين ومراجع الاسلام ــ عن هاتين الفئتين حينما يتطرق إلى «التحجُّر» و«المتحجّرين». ففيما يخصُّ الحجّتيِّين يقول (رض):

٩٢ــ المصدر نفسه/ص٨٦.

٩٣ــ الاسلام ومتطلبات العصر/ص٣٠٩.

٩٤ــ التعليم والتربية في الاسلام/ص٣٠٩.

«والحجّتيون الذين حرّموا الكفاح والنضال بالأمس، وبذلوا كلَّ ما في وُسعهم لإفشال الإضراب عن إنارة الأضواء في مناسبة الخامس عشر من شعبان، قاموا بذلك في اوج تصاعد الكفاح وقمة المواجهة؛ هؤلاء صاروا اليوم اكثر ثورية من الثوار أنفسهم». (٩٥)

اما بشأن الولايتيين فيقول:

«ودعاة الولاية الذين أهانوا بالامس كرامة الاسلام والمسلمين بسب موقفهم التقاعسي وصمتهم المقيت وتحجُّرهم، وقصموا بأعمالهم ظهر النبيِّ (ص) وأهل بيته الطاهرين (عليهم السلام) هؤلاء الذين لم يخرج تعاملهم مع شعار الولاية عن اطار استغلاله مصدراً للكسب ووسيلة للترف؛ طفقوا يطرحون اليوم أنفسهم زاعمين أنهم هم بناة الولاية ووارثوها، ويتحسّرون على حال الولاية في ظل حكم الشاه». (٩٦)

لقد اوصل الحجتيون والولايتيون التحجُّر والتقدُّس الزائف إلى أوجه تحت غطاء إسم «**الامام الحجّة صاحب الزمان ـ عج ـ**» و «محبَّة اهل البيت (ع) وولايتهم» إذ إنهم حرّموا النضال والكفاح واكتفوا بظواهر شعاراتهم فحسب، وطفقوا يعتبرون كلَّ مسلم مؤمنٍ **بالامام الحجَّة صاحب الزمان** وبولاية اهل البيت؛ مخالفاً **للامام الحجَّة** وفاقداً لولاية أهل البيت اذا كان يؤمن أيضاً بالجهاد ويعتقد بالكفاح والنضال.

هؤلاء أنفسهم المتقدّسون الحمقىٰ الذين أصبحوا آلات وأدوات في أيدي المنافقين المحتالين الماكرين، وكانوا يسوّغون ويؤوّلون ظلم الطاغوت عبر جهلهم، وكانوا يبرّئون الشاه وجهازه الظالم لمجرَّد «إنه شيعي» و «ظل الله»! ويخطّئون المناضلين والمجاهدين المسلمين وعلماء الدين الناشطين في ميدان الجهاد وعلى رأسهم **الامام الخميني (رض)** بذريعة «القيام قبل القائم» و «التدخُّل في الأمور السياسية». وهنا يدرك المرء جمال تعبير **الاستاذ الشهيد المطهّري** الذي قال:

٩٥ــ من بيان الإمام الخميني الىٰ المراجع وعلماء الاسلام/شباط ١٩٨٩.

٩٦ــ المصدر نفسه.

«إن خطر مثل هؤلاء الاشخاص والفئات يتأتّى من كونهم يصبحون آلات وأدوات في يد المحتالين الماكرين ويتحوّلون الى عقبة في طريق تحقيق المصالح الاسلامية العليا. فالمنافقون عديمو الدين يسخّرون المقدّسين الحمقى ضدّ المصالح الإسلاميّة. هؤلاء المقدّسون ما يلبثون أن يتحولوا الى سيف في يد المنافقين وسهم في كبد قوسهم».(٩٧)

«وفي ايراننا، حيث يفتخر الناس بحبّ أهل البيت الأطهار وولايتهم، يستغلُّ المنافقون اسم اهل البيت المقدّس ويجعلون من قلعة (ولاء اهل البيت) المقدّسة حصناً مضاداً وخندقاً معادياً للقرآن والاسلام وأهل البيت، لمصلحة اليهود الغاصبين، وهذا أشنع أنماط الظلم للإسلام والقرآن والرسول الأكرم وأهل بيته الكرام ».(٩٨)

٩٧ــ الجذب والدفع في شخصية علي (ع)/ص١٥٥.

٩٨ــ المصدر نفسه/ص١٨٢.

* رابعاً:

ملامح التحجُّر

في ضوء المفاهيم التي سبق طرحها، نحاول في هذا الموضوع أن نتناول أهمَّ ملامح «الاسلوب والتفكير المتحجِّر» وأبرز مميّزاته. وهذه الخلاصة الاجمالية تفيد في الخروج بحصيلة جامعة واحاطة شاملة بنمط التفكير المتحجّر، ومن شأنها أن تكون مِلاكاً جيّداً ومقياساً صالحاً يمكن ــ بالاستناد إليه ــ التعرف على أيّ توجّه او تيّار فكريٍّ متحجِّر بكلِّ سهولة ويسر. وفيما يلي خصائص التحجُّر وملامحه:

١ــ الركود الفكري وتعطيل العقل:

تقف الفئات المتحجّرة ــ أساساً ــ موقفاً سلبياً من «دور العقل» وتخطّئه. ولهذا السبب فإنّها هي ذاتها عادة ما تكون راكدة وضعيفة من الناحية الفكريّة. وغالباً ما يسود لديها التقليد الأعمىٰ للسلف، ويطغى فيها الاهتمام بالظواهر والقشور أكثر من التفكير والتعقُّل والتعمُّق. ويتحدث **الاستاذ الشهيد المطهّري** عن هذه الخصوصيّة عند الخوارج فيقول:

«إننا نجد من بين المذاهب العقائدية والعلميّة الاسلاميّة وكذلك الفقهيّة أيضاً، نجد بعضها قد وُلدت ونَشأت نتيجة روح تفكيك التعقُّل عن التديُّن وفصلها عن بعض، وهذه المذاهب هي

تجسيد لنمط التفكير الذي كان سائداً لدى الخوارج تماماً. فقد نُحّي العقل ــ كلياً ــ عن سبيل كشف الحقيقة او استخراج القانون الفرعي لديهم وهم يعتبرون اتّباعه بدعة وزندقةً». (٩٩)

كما يتحدث عن هذه الصفة لدى «الأشاعرة» فيقول:

«... لقد ظهر مذهب الأشاعرة فأنكر بشكل كلي أيَّ قيمة للتفكُّر والافكار العقليَّة المحضة والحسابات الفلسفيَّة الخالصة، وزعموا أنَّ على المسلمين أن يتعبَّدوا بما ورد في ظاهر التعبيرات الروائية والّا يتعمَّقوا في المعاني ولا يتفكَّروا فيها». (١٠٠)

وأخيراً، ننقل ماقاله الشهيد المطهّري بخصوص تعطيل العقل من قبل الاخباريين:

«لقد عطَّل الاخباريون عمل العقل بشكل كلّي، وفي مضمار استخراج الأحكام الإسلامية من نصوصها وأدلّتها فقد أسقطوا أيّة حجيّة وسَنديَّة عن العقل وفهمه واعتبروا اتّباعه حراماً». (١٠١)

٢ــ ضعف الاسس والمرتكزات العقائدية:

عادةً ما يكون المتحجّرون مصابين بالضعف والنقص في الأُسس العقائديّة والدينيَّة. فهم لم يفهموا الأُصول والمفاهيم الأساس للدين، ولهذا السبب فانهم ينحرفون بسهولة. والضعف العقائدي لدى المتحجّرين يسوقهم نحو اختلاق البدع في الدين. يقول الاستاذ بخصوص هذه الصفة عند الخوارج:

«في البداية ظهر حزب الخوارج لإحياء سنّة إسلاميَّة، بَيدَ أنَّ جهلهم وفقدانهم البصيرة جرّهم الى ما انتهوا اليه حتى طفقوا يفسّرون آيات القرآن تفسيراً خاطئاً، ومن هنا فقد أصبح لديهم جذر

٩٩ــ الجذب والدفع في شخصية علي (ع)/ص١٦٦.

١٠٠ــ المصدر نفسه/ص١٦٧.

١٠١ــ المصدر نفسه/ص١٦٨.

ديني واصطبغوا بطابع ديني ووضعوا لأنفسهم آراء ومتبنّيات خاصة على اعتبار أنهم مذهباً وطريقة خاصة».[١٠٢]

٣ـ النظرة السطحية (الضحالة الفكرية):

على صعيد بحث الأُمور ودراستها يتميَّز المتحجِّرون بأنهم يتوقَّفون عند ظاهر الموضوع وقشره ولا ينفذون مطلقاً الى لبِّ القضية وعمق الموضوع. وهذه الصفة أصبحت مُنطلقاً ينطلقون منه في إصدار جميع أحكامهم ابتداءً من موضوع تفسير القرآن والحديث وانتهاءً بغير ذلك من الأُمور الاعتيادية والقضايا العرفيّة، فكلٌّ ما يستحوذ على اهتمامهم ويستقطب انتباههم هو المظاهر والقشور لا المضامين واللباب. يقول **الاستاذ الشهيد المطهّري** بخصوص الخوارج:

«إنَّ الإسلام لم ينهمك أبداً في شكل الحياة وقشورها ومظهرها، وكانت كلُّ تعاليمه تركِّز على الروح والمعنى والسبيل الذي يوصل الانسان الى تلك الاهداف والمعاني.. ولا يمكن العثور في الاسلام على وسيلة ماديَّة او شكل ظاهري له صفة تقديسيَّة يجد المسلم نفسه ملزماً بصيانة ذلك الشكل والمظهر والمحافظة عليها.

... وحتى تطبيق الحقيقة عل الظاهر والمصاديق يُعتبر في حدِّ ذاته عملاً ليس بالهيِّن اليسير بحيث يتسنّى القيام به لكلِّ أحد، بل هو بحاجة إلى فهم عميق وإدراك صائب، بينما كان الخوارج أُناساً جامدي الفكر لا يطيقون فهم خلفيَّة ما يسمعون وما وراءه».[١٠٣]

وحول هذه الخصوصيَّة، يرى الاستاذ أن مذهب الإخباريين قريب من مذهب الظاهريِّين وأهل الحديث عند أهل السنّة (الأشعرية) فيقول:

«إنَّ مذهب الاخباريين ــ وهو مذهب فقهيٌّ شيعيٌّ وصل اوج انتشاره وقوَّته في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري ــ

١٠٢ــ المصدر نفسه/ص١٥٥.

١٠٣ــ المصدر نفسه/ص١٦٢.

قريب جداً من مذهب الظاهريين وأهل الحديث عند أهل السنة». (١٠٤)

٤ـ التقدّس الأجوف الزائف :

يتميَّز المتحجِّرون ـ عموماً ـ بأنَّهم متقدِّمون على غيرهم من حيث التمسُّك بظواهر الدين وطابعهم العام هو التقدُّس الزائف. إنَّهم متقدّمون على الآخرين عدَّة خطوات في تلك المجالات. ومن خصائصهم الأُخرى التزامهم الظاهري بالآداب والسنن الدينيَّة، والتقيُّد التامُّ باداء المستحبّات واجتناب المكروهات، ودوام العبادة الصوريَّة والظاهريَّة وشدَّتها، وهي خصائص تلازم هذه الفئة ولا تكاد تنفصل عنهم. ويؤكد **الاستاذ المطهّري** على هذه النقطة لدى الخوارج فيقول :

«كان الخوارج في الغالب مِن العرب، وكان بينهم بعض الاشخاص من غير العرب، لكنهم كانوا ـ عرباً وغير عرب ـ كلّهم جهلاء ضعيفي العقول وغير مطلعين على المعارف الاسلامية. وكانوا يحاولون أن يعوضوا نقائصهم ويجبروا عثراتهم من خلال التركيز والاهتمام بالركوع والسجود المطوّلين». (١٠٥)

وتلاحَظ هذه الخاصية لدى بقية الفئات المتحجرة كالاخباريين والاشاعرة أيضاً. فمثلاً على الرغم من أن تمسُّك الاخباريين بظواهر الاحاديث والروايات وغفلتهم عن مضامينها ومعانيها يعتبر دليلاً على جهلهم وخمولهم ولكنهُ يعدُّ ـ من ناحية أُخرى ـ دليلاً على تقدُّسهم الزائف أيضاً، ذلك لأن شعارهم الدائم هو «اننا نتمسك بما قال **الصادق والباقر**».

هؤلاء متقدسون ومتعبِّدون بيد أن تقدُّسهم وتعبُّدهم يختلف عن تقدُّس الناس البصيرين الواعين وتعبُّدهم. فتقدُّس هؤلاء وتعبُّدهم هو عين الجهالة،

---

١٠٤ ـ المصدر نفسه/ص١٦٨.

١٠٥ ـ المصدر نفسه/ص١٥٣.

وذات الجهل، ولذلك فان مايراه الأشخاص السطحيون والسذّج منهم بوضوح هو تقدسهم وجهلهم (وإدراكه بحاجة الى المزيد من التعمُّق أيضاً) عادة ما يكون مستتراً تحت غطاء تقدُّسهم، ونفس استتار جهلهم بحد ذاته يجعل من العسير مكافحة هذه الفئات وافكارها.

ويتحدث **الاستاذ الشهيد المطهّري** عن صعوبة الكفاح ضد الخوارج، وأن أيَّ شخص سوى **علي** (ع) لم يكُ بوسعه مواجهتهم، ويقول:

«لقد شهر **عليٌّ** السيف بوجوه أُناس من هذا النمط: يبدو عليهم الصلاح، والنسك والاستقامة، وهم ذوو شمائل وخصال توحي وكأن الحق معهم، وأنهم من أصحاب الزهد والبساطة الغارقين في العبادة، ثم طفق **عليٌّ** يحصد رؤوسهم بحدِّ سيفه.

ولقد كان حال تقدُّس الخوارج وتقواهم الظاهرية بمكان بحث إن وضعهم يُدخل الشكَّ والتردُّد في ذهن أي مؤمن ولذلك فقد استولى على الناس جوٌّ من الغموض ملبَّد بسُحُب الابهام، وامتلأ الوضع بضباب كثيف يَحول دون تبلور رؤية واضحة ويبعث في النفوس الحيرة والتردُّد... ولم يجرؤ أيٌّ من المسلمين الذين يؤمنون بالله ورسوله والقيامة على أن يسل سيفه بوجه هؤلاء ويشهر حسامه عليهم لمحاربتهم غير **عليٌّ** وبصيرته وإيمانه النافذ.

ان امثال هؤلاء لا يجرؤ على قتلهم سوى الذين لا يعتقدون بالله والاسلام لا المؤمنون العاديّون. ولذلك فان **علياً** يَعتبر ذلك فخراً كبيراً له فيقول ـ ما معناه ـ: ولقد كنت أنا الوحيد الذي ادرك الخطر الكبير الذي يشكّله هؤلاء المتقدّسون المزيفون على الاسلام، ولم تمنع بصيرتي عن ادراك كنههم جباهُهم السود التي أثَّر فيها السجود وملابسهم الرثة التي يتظاهرون عبرها بالزهد وألسنتهم التي تلهج بالذكر والتسبيح وحتى عقيدتهم الراسخة القوية».(١٠٦)

١٠٦ـ المصدر نفسه/ص١٤٨ـ١٤٩و١٥٠. (لم أجد العبارات المشار إليها في الصفحات

ان الدرس الذي تعطيه لنا هذه الخاصية لدى الخوارج هو أنه من أجل مكافحة المتحجّرين المتقدّسين ينبغي أولاً فضح الجانب الخفي من شخصيتهم وهي جهلهم الخفي، وبعد إفشاء ذلك تبدو مكافحتهم. وهذا ما فعله أميرالمؤمنين أيضاً. يقول الشهيد **المطهّري**:

«لقد اقترن جهل هذه الفئة مع عبادتها فكانا توأمين. وكان علي(ع) يريد مكافحة جهلهم، ولكن كيف يمكن الفصل بين صفة الزهد والتقوى والعبادة لديهم وصفة الجهل فيهم بينما عبادتهم هي عين جهالتهم. فالعبادة المقترنة بالجهالة تُعتبر بنظر **علي** ــ وهو الخبير المحنك البصير بالإسلام ــ لا قيمة لها. ولهذا فقد وجّه إليهم ضربته ولم تستطع نواحي الزهد والتقوى لديهم أن تعيق **علياً** عن ضربهم».(١٠٧)

٥ــ ضيق الافق والنظر:

وهذه أيضاً تعتبر من خصائص المتحجّرين. وضيق النظر يعني عدم القدرة على تحمّل الآراء المخالفة والتعامل بحدّة مقترنة بالعصبية البلهاء مع أي رأي أو شخص لا يتفق معهم.وبعكس «ضيق النظر» «انشراح الصدر» الذي يفتقده الشخص ذو النظرة الضيقة. وهذه الخاصية منشؤها «جمود» المتحجّرين.

ذلك ان المتحجّرين يفترضون أن أفكارهم مثل الصخر جامدة ومسلّم بها ولا تقبل الخطأ ولهذا فإنهم لا يطيقون تحمُّل الرأي المخالف لهم (بل لا يسعهم حتى مجرّد الاستماع إليه) وعادة ما يتهمون أصحاب الرأي المخالف لرأيهم بالانحراف والزندقة والكفر وغيرها.. يقول **الاستاذ المطهّري** بشأن ضيق النظرة لدى الخوارج:

«يُعتبر ضيق النظرة المذهبي من خصائص الخوارج، لكننا مازلنا نشاهده اليوم في المجتمع الاسلامي. وهذا هو معنى ما ذكرناه

ᐅ المذكورة آنفاً، ولكني وجدتها منقولة في ص ١٥٦ ــ المترجم).

١٠٧ــ المصدر نفسه/ ص ١٥٤.

آنفاً من أن الخوارج قد زال شعارهم وانطوى ومات لكن روح مذهبهم مازالت تُشاهَد بين بعض الأفراد والطبقات، وهي حيّة وسائدة في بعض الاوساط.

اننا نشاهد بعض ذوي العقول المتحجّرة يعتقدون أن العالمين كلهم كفّار ملحدون عدا أنفسهم وعدداً ضئيلاً من أمثالهم، ويتخيلون أن للاسلام دائرة ضيقة ومحدودة للغاية.

وقد قلنا في الفصل السابق إن الخوارج غير مطّلعين مطلقاً على روح الثقافة الاسلاميّة لكنّهم شجعان، ولأنهم كانوا جَهلَة فقد أُصيبوا بضيق النظرة، ولأنّهم ضيّقو النظرة فإنهم سرعان ما يكفّرون الآخرين ويفسّقونهم حتى طفقوا يعتبرون الاسلام منحصراً فيهم ويعتقدون أن باقي المسلمين الذين لا يؤمنون بأُصول عقائدهم كفّار. والخوارج عديمو الشهامة ــ وهم المتقدّسون الجبناء ــ وضعوا السيف الحديد جانباً وامتنعوا عن النهوض بواجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حيال أصحاب المناصب والممسكين بزمام الامور الذين كانوا يشكّلون خطراً عليهم، بيد أنهم ــ أي الخوارج ــ شهروا سيوف ألسنتهم وجعلوا يطعنون بها أفئدة اصحاب الفضيلة، فطفقوا يتّهمون أهل الفضل كلّ واحد بتهمة ما، حتى لم يبقَ واحد من الفضلاء في التاريخ الاسلامي إلّا وأصبح هدفا لسهام تهمهم وافتراءاتهم.

فهذا اتهموه بإنكار الله والزندقة، وذاك اتهموه بإنكار المعاد، والآخر زعموا أنه ينكر المعراج الجسمي، والرابع وصموه بالتصوف، والخامس افتروا عليه غير ذلك وهلمّجرّا.. بحيث إننا لو اعتبرنا أقوال هؤلاء الحمق ومزاعمهم مقياساً وملاكاً فنستنتج انه لم يكُ هناك أي عالم مسلم حقيقي البتة.

وهكذا فان أبا علي بن سينا، والخواجة نصير الدين الطوسي، وصدر المتألهين الشيرازي، والفيض الكاشاني والسيد جمال الدين الأسد

آبادي ــ وأخيراً ــ **محمد اقبال الباكستاني** قد ذاقوا كلهم مرارة هذه الجرعة»[١٠٨].

وضيق النظرة والصاق تهمة الكفر والالحاد والزندقة بالمعارضين لم يكن صفة الخوارج وحدهم بل إن كلَّ المتحجِّرين كانوا وما زالوا يتصفون بذلك، ففيما يخص الاخباريين يقول **الشهيد المطهّري**:

«لقد قال الاخباريون: لا اعتبار للقرآن، ولم يقولوا لا تقرأوا القرآن، بل قالوا اقرأوه وقبِّلوه ولكن لا تفهموه. وهذه ضربة قوية للعالم الاسلامي وخصوصاً عالم التشيُّع، بحيث إن الامور آلت فيما بعد إلى أن يخشى مفسِّرو الشيعة ــ في الغالب ــ من أن يقوموا بتفسير القرآن، وطفقوا يتحاشون التفسير»[١٠٩].

٦ــ اعوجاج الفهم والجهل:

في الاساس يتصف المتحجِّرون بالجهل، أي إنهم لا يفهمون القضايا على حقيقتها وينبغي ألّا نقع في خلط بين صفة اعوجاج الفهم والجهل وصفة الركود الفكري وتخطئة العقل فنعتبرهما صفة واحدة. فسبب جهل المتحجِّرين وجذوره. تعود إلى عدم استخدام العقل والامتناع عن التدبر والتفكُّر في فهم الامور وخصوصاً في مضمار القضايا الدينية والمذهبية، ولذلك فانّ الجهل واعوجاج الفهم هما النتيجة الطبيعية لذلك.

يقول الاستاذ **الشهيد المطهّري** بخصوص الخوارج وجهلهم:

«ان أحدى أبرز مميزات الخوارج هي جهلهم وغباؤهم. ومن مظاهر جهلهم أنهم لا يميزون بين ظاهر القرآن أي خطّه وغلافه من جهة، ومعناه من جهة أُخرى، ولذلك فقد خُدعوا بمكر **معاوية وعمرو ابن العاص** وحيلهما»[١١٠].

١٠٨ــ المصدر نفسه/ص١٥٨و١٥٩.

١٠٩ــ الاسلام ومتطلبات العصر/ص٥٠.

١١٠ــ الجذب والدفع في شخصية علي (ع)/ص١٥٤.

وفيما يخص الاخباريين أيضاً يذكر **الشهيد المطهّري** امثلة شتّى عن جهلهم واعوجاج الفهم لديهم، ومن جملتها قضيّة إعطاء وصفة الماء البارد من قبل أحد الأئمة (ع) لمريض جاءه، واعتبارهم هذه الوصفة العلاجيّة تنفع لشفاء جميع المرضى، وكذلك قضيّة كتابة **الإمام الصادق** (ع) الشهادتين على كفن ابنه **اسماعيل**، حيث طفق الاخباريون يدرجون على كتابة تينك الشهادتين على أكفان جميع الأموات قائلين إن **اسماعيل** يشهد الشهادتين، رغم اختلاف اسماء الموتى.

٧ــ الرجعية وعبادة القديم:

الصفة الاخرى التي تميِّز المتحجِّرين هي عبادة القديم وحب الامور التي عفا عليها الزمن. فمن وجهة نظرهم يعتبر كلُّ ما هو جديد باطل بالضرورة، وكل شيء قديم عتيق فهو حقٌّ وصحيح حتماً. وهم يعتقدون أن المرء كلّما كان اكثر حبّاً وتعلُّقاً بالاشياء القديمة التي عفا عليها الزمن فهو أقرب للتقوى والتديّن، وعلى العكس من ذلك، كلّما كان اكثر قبولاً بالامور الجديدة وذا رغبة بمظاهر التطور فانه يبتعد عن التديُّن والتعبُّد والتقوى، وهذه الخصلة لدى المتحجّرين منشَؤها جمودهم العقلي، فجمود عقل المتحجّر يحكم عليه بأن لا يبدي أدنى مرونة تجاه الظواهر الجديدة، بل يحكم بتأييد كل ما هو قديم.

يقول **الاستاذ المطهّري** حول صفة «عبادة القديم» لدى المتحجرين:

«ان الشخص الجامد متنفر من كلِّ ما هو جديد ومنزعج من كل شيء حديث، ولا يستطيع أن يستسيغ سوى القديم، اما الجاهل فانه يعتبر كلَّ ما هو جديد موجّهاً بذريعة أنه من متطلّبات العصر وباسم التجدُّد والتطوُّر. والجاهل لا يميِّز القشر واللبِّ ولا يفرِّق بين الوسيلة والهدف. وهو يرى أن الدين مأمور بحفظ الآثار وصيانة التراث.. انه يرى ان قراءة جزء عمَّ (*)، والكتابة بالقصبة، واستعمال محفظة

---

*ــ جزء عمَّ: هو الجزء الثلاثون من القرآن الكريم، سُمي بذلك نسبة الى أول كلمة في اول سورة منه.

الأقلام المصنوعة من المقوّى، والاستحمام بالأحواض المشتركة في الحمامات العامة والاكل باليد بغير ملعقة، وايقاد السراج النفطي، وحياة المرء أُمّياً، كّلها ينبغي أن يُحافَظ عليها كشعائر دينية.

والجامد والجاهل كلاهما يتّفقان على أن كلّ ما كان موجوداً في السابق فهو من القضايا والشعائر الدينية، مع اختلاف واحد هو أن الجامد يرى أن من الضروري المحافظة على هذه الشعائر، فيما يرى الجاهل أن الدين متلازم مع عبادة كلّ ماهو قديم وانه ميّال إلى السكون والثبات.

وهكذافقد نشأت من جمود الصنف الأول وجهل الصنف الثاني الفكرة الموهومة والمفتعلة؛ فكرة تناقض العلم والدين».(١١١)

والنقطة التي يجب التذكير بها هنا هي؛ إن مقصود **الشهيد المطهّري** من ذم عبادة القديم لدى المتحجّرين ليس ان كلّ قديم وكل ما وصلنا من التراث باطل وخاطئ، مثلما انه لا يقصد أن كل ما هو جديد ومبتكر وحديث قيّم وصحيح. بل إن مايقصده الإستاذ هو أن معيار الصحة والخطأ وملاك البطلان وعدمه ليس «القِدم والعراقة»، بينما يرى المتحجّرون أن مجرد كون الشيء قديماً هو قيمة وامتياز في حدِّ ذاته، ومجرد كونه جديداً يجعله ضد القيم في حدّ ذاته.

وفي الواقع أن الملاك والمقياس هو «القيم» ذاتها، فكلُّ ما كان «قيّماً» فهو مقبول سواء كان قديماً او جديداً. وكلّ مايخلو من قيمة او هو ضد القيم فهو مذموم سواء كان قديماً او جديداً، وملاك القيم وأضدادها هو الدين والعقل السليم، كما أن اجتناب «عبادة القديم» لا تعني القبول بـ «عبادة الجديد» وإحلالها محلّها فكلتاهما باطلة.

٨ـ الرياء وخداع العوام:

آخر خصائص المتحجّرين هي الرياء وخداع الرأي العام. ومنشأ هذه

١١١ـ نظام حقوق المرأة في الاسلام/ ص ٨٧.

الصفة المباشر هو القشريّة والسطحيّة والاعتناء بظواهر الامور. ولو كان جوهر الاشياء وباطن الاعمال هما موضع اهتمامهم لما لوحظ لديهم هذا الميل نحو الرياء وخداع العوام. ولكن بما أن ظواهر العبادات وقشورها تستحوذ على اهتمامهم فمن الطبيعي أن يجد الرياء وخداع الرأي العام لديهم الارضيّة المناسبة.

ويوضح **الاستاذ المطهري** هذه الحقيقة لدى الخوارج فيقول:

«لقد كلّف ظهور طبقة من الجهلة المتقدّسين الذين يعتبر الخوارج جزءاً منهم؛ كلّف الإسلام ثمناً باهضاً، وماعدا الخوارج الذين كانوا مع كلّ معايبهم ونواقصهم يتميّزون بفضيلة الشجاعة والتضحية؛ كان هناك صنف آخر من المتنسّكين لم يتّصفوا حتى بهذه الفضيلة، وهؤلاء ساقوا الاسلام نحو الرهبانيّة والانزواء، وجعلوا سوق التظاهر والرياء رائجاً».(١١٢)

وفي الاساس تتناغم الآراء والافكار المتحجّرة مع ميول العوام ورغباتهم وتوجهاتهم، وهذا في حد ذاته له تأثير كبير في مراءاة المتحجرين واستغفالهم الرأي العام. وممّا يرفع من حدّة رياء المتحجّرين ويزيده؛ تقبُّل العوام وتجاوبهم وانخداعهم، فهو يدفع المتحجّرين للمضي قدماً في ريائهم. يقول الاستاذ:

«ثمّة أمر يبعث على نموّ نمط التفكير الاخباري وتغلغله بين الناس العوام وهو: (التظاهر بكون الحق بجانبهم) الذي يلقى قبولاً وتصديقاً من قبل العوام، اذ إنهم يزعمون أنهم لا يقولون شيئاً من عنديّاتهم (فنحن من أهل التعبّد والتسليم والخضوع لما قاله **الباقر**(ع) وما قاله **الصادق** (ع) ولا نقول شيئاً غير ماقالا، نحن لا نقول كلاماً منّا بل نردد ما يقوله المعصوم فحسب على حد تعبيرهم».(١١٣)

١١٢ـ الجذب والدفع في شخصية علي(ع)/ ص ١٥٤

١١٣ـ عشر مقالات/مقالة أصل الاجتهاد في الأسلام/ص٨٧.

*خامساً:

أنماط التحجُّر ومجالاته

مَرّ في تعريفنا للتحجر أنه عبارة عن «الجمود» و «انعدام المرونة السلبي» حيال الأفكار والنظريّات الجديدة. والتحجُّر حالة روحيّة وفكريّة يمكنها أن تظهر بصور وأشكال مختلفة. ونحاول هنا أن نسلّط الضوء على بعض وجوه التحجُّر وانماطه ومجالاته في ضوء مجموعة الأبحاث التي سبق طرحها ومن خلال مؤلفات الاستاذ الشهيد **المطهري**. ويمكن أن يظهر التحجر بالصور التالية:

١ـ التحجر في فهم العقائد والاصول النظرية.

٢ـ التحجُّر في اداء العبادات وانجاز الفرائض الدينية.

٣ـ التحجُّر في القضايا الأخلاقية.

٤ـ التحجُّر في فهم التاريخ.

٥ـ التحجُّر في الفقه والاجتهاد.

* التحجر في العقائد والعبادات(*):

---

*ـ رغم أن المؤلف قد فرّق بين التحجر في مجالي العقائد والعبادات في النقاط الخمس آنفة الذكر إلّا أنه جمع في هذه النقطة كليهما في موضوع واحد (المترجم).

كنا قد طرحنا سابقاً توضيحات بخصوص هذين النوعين من التحجُّر ولذلك ومن باب التذكير بها بشكل مختصر نقول:

التحجُّر في مضمار العقائد والاصول النظريَّة يعني انعدام المرونة الفكريَّة على صعيد العقائد. وهنا ينبغي الالتفات إلى أن نفس النظرة الكونيَّة والعقائد الاسلاميَّة والأُصول النظريَّة؛ ثابتة وغير قابلة للتغيير، بَيدَ أنّ فهمها وتصوُّرها يمكن أن يتفاوت بين زمان وآخر، وأساساً فان فهم العقائد الاسلاميَّة أمرٌ يقبل التكامل والتغيير والاصلاح.

فاذا كان لدى امرئ فهماً ورؤية خاصَّة للقضايا العقائديَّة والنظريّة في الاسلام واعتبر فهمه هذا عين الحقيقة واعتقد أنه حاسم ونهائي ومسلّم به وأغلق أيَّ باب أمام كلِّ اعادة نظر ودراسة وبحث فيه وامتنع عن قبول ذلك بتاتاً؛ فمن الطبيعي أنه شخص متحجّر.

والتحجر في أداء العبادات والفرائض الدينيَّة ـ والذي هو من أنواع التحجُّر العملي ـ يعني أن يتعلَّم الشخص بعض عباداته بشكل خاطئ، ويؤدّي فرائضه الدينية سنين طوالاً بهذه الطريقة الخاطئة، ونتيجة مضي الوقت تصبح هذه الطريقة ملكة وعادة لديه بحيث إنه يغلق كلَّ الأبواب بوجه أيِّ تغيير او إعادة نظر او إصلاح فيها. وهذا النوع من التحجر عادة ما يمكن مشاهدته عند العوام.

فمثلاً حينما يكون هناك شخص يبلغ عمره (٥٠) أو (٦٠) عاماً وهو يؤدي صلاته بطريقة خاطئة ـ طيلة هذه المدة ـ وتوجد مؤاخذات وأخطاء في طهارته او وضوئه او صيامه، فاذا ذُكِّر بهذه الامور ونبِّه على هذه الأخطاء ولم يستطع أن يقنع نفسه بالإقلاع عن هذه الطريقة الخاطئة واجتناب تلك الاشكالات، فهو يمثِّل مصداقاً للتحجُّر في العبادات والفرائض.

***التحجُّر في القضايا الأخلاقية:**

مع الاسف إن كثيراً من المفاهيم الأخلاقيَّة في الاسلام تُفهم بشكل

خاطئ ويتمُّ تعليم المجتمع بها بهذا الشكل أيضاً. ويمكن العثور على العديد من المفاهيم الأخلاقية التي لا تملك العامّة من الناس ــ خصوصاً ــ تصوّراً صحيحاً عنها، ولذلك فإنهم يقعون في الخطأ والانحراف عند تطبيقها بشكل عملي.

هكذا كان مصير مفاهيم من قبيل الصبر والتوكُّل والتوبة والزهد والرياء وعشرات القيم الأخلاقية الأُخرى. ويشير **الاستاذ الشهيد المطهّري** الى اثنين من هذه المفاهيم والقيم الأخلاقيّة الإسلاميّة وهما: التوكُّل والزهد. وينبّه سماحته الى التصوُّر الخاطئ والتحجري عن «**التوكُّل**» فيقول:

«إن التوكُّل يُطرح في آيات القرآن الكريم على شكل مفهوم إحيائي وحماسي أي أن القرآن حينما يريد دفع الإنسان الى العمل وحثَّه على النشاط وإزالة المخاوف والقلق عن الانسان؛ يقول له لا تَخف وتوكَّل على الله. ليكن اعتمادك على الله وانطلق إلى الامام، وتوكّل على الله وقُل الحقيقة، واستند إلى الله ولا تخشَ كثرة العدوّ والخصوم.

بيد أنكم تبحثون عن وضع هذا التوكُّل بين أفكار المسلمين اليوم ترونه مفهوماً ميّتاً. فحينما نريد أن نركن الى السكون والإنزواء وعدم التحرك، وعندما نريد التنصُّل عن المسؤولية وإلقاءها وراء ظهورنا نتشبَّث بالتوكُّل بقوة. وهكذا انقلب مفهوم التوكُّل في تصوُّرنا رأساً على عقب ودخل الى أذهاننا بعكس ماورد في القرآن».[114]

والمفهوم الآخر الذي صار معكوس الصورة في الاذهان هو «**الزهد**»، فيقول عن ذلك:

«ان من ينتهج الزهد من أجل أن يجسّد الايثار، ومن ينتهجه في سبيل أن يواسي الآخرين، ومن ينتهجه لأنه يرى تدهور مستوى المعيشة في المجتمع او لأنه يريد أن يتخفَّف من حمل الأعباء ويتخلَّص

١١٤ــ الحق والباطل/ص١٢٤.

من ربقة القيود فيصير حرّاً في المجتمع، ومن يتّخذ الزهد منهجاً له لأنه يريد أن تحيا روحه الإنسانيّة حرّة طليقة وتستطيع أن تناجي ربّها؛ مثل هذا الشخص هل زهده يحيي الإنسان وينفخ فيه الحياة أم أنه يميته؟ إنه يحييه طبعاً. وزهد عليّ بن أبي طالب كان على هذا الأساس، ولذلك فإنه كان الإنسان الأكثر نشاطاً وحيويّة وتحرُّكاً في العالم. كان عليٌّ(ع) زاهداً، وبحكم كونه زاهداً فقد كان شجاعاً، ويتمتع كذلك بالشجاعة الروحيّة.

وهؤلاء الزهّاد الذين نشاهدهم نرى أن مظهر زهدهم هو ألّا يتكلّموا مع أحد قطُّ، ولا يتدخّلوا في عمل أيِّ شخص، وألّا ينبسوا ببنت شفة، ويأتون من هذا العمل ليمارسوا غيره، ويغطون رؤوسهم بعباءاتهم ولا ينطقون بكلمة مع أي شخص.. زهد هؤلاء هو الزهد الذي لا روح فيه وليس هو الزهد الذي يحبّذه الاسلام ويندب إليه، والاسلام ينفر من أمثال هذا الزهد واولئك الزهّاد».(١١٥)

* **التحجُّر في فهم التاريخ:**

النمط الآخر من أنماط التحجُّر يتمثّل في فهم القضايا التاريخيّة وتلقّيها، وخصوصاً التاريخ الإسلامي. وأحد النماذج التي عالجها الاستاذ الشهيد **آية الله المطهّري** وبحث فيها بشكل كامل: التصوُّرات والتفسيرات التحجرية التي طُرحت حول ملحمة كربلاء العظمى وثورة **أبي عبدالله الحسين** (ع)، بحيث إنَّ هذه التصوُّرات او لنقل بعبارة اوضح (التحريفات) مسخت وشوَّهت الطابع الثوريَّ والحماسيَّ لهذه النهضة بشكل كلي.

ويتحدث الاستاذ الشهيد في أشرطة محاضراته المسجّلة تحت عنوان (تحريفات عاشوراء) بالتفصيل بخصوص هذه التصوُّرات التحجُّرية والتحريفات

١١٥ــ المصدر نفسه/ص١٧٣و١٧٤.

الناشئة عن الجهل والغباء أو الخبث. أحد تلك التصوُّرات التحجُّرية هي قضية «البكاء على **الامام الحسين** (ع)».

فقد ورد لدينا في الرويات أن من بكىٰ او تباكىٰ أو أبكىٰ الآخرين، حزناً على **أبي عبدالله الحسين** (ع) وبسبب ما مرَّ عليه من المصائب فإنَّ له أجراً كثيراً وتجب له الجنّة. وفي السنّة أيضاً أن الأئمة المعصومين (ع) كانوا يبكون على **الامام الحسين** (ع). بيد أنه مع الاسف أخذت تبرز عن هذه القيمة الاسلامية تصوُّرات سلبية للغاية ولا روح فيها. يقول الاستاذ الشهيد في هذا الصدد:

«مع الأسف إنّ بعض الناس ظنُّوا أننا نستطيع تعريف الناس بمنزلة **الامام الحسين** دون أن نعرّفهم على قضية **الامام الحسين** (ع) ومدرسته. ويكفي أن يأتي الناس ويجتمعوا في مكان واحد ويجلسوا للبكاء على **الامام الحسين** حتى لو كان بكاؤهم مقترناً بالجهل وعدم المعرفة.. لقد جاء بعضهم وطلبوا منّي قراءة المراثي في مراسيم العزاء الحسينية مؤكدين أن ثوابها كبير وكبير جداً حتى انه يمكن استخدام أيِّ وسيلة لهذا الغرض.

انتبهوا إلى هذا الامر؛ لقد أخذ بعضهم يردِّد اليوم كلاماً فحواه: ان **ماركس ولينين** يقولان (**ان الغاية تسوّغ الوسيلة**)، فاذا كان هدفك صالحاً فاستخدم أيَّ وسيلة كانت لتحقيقه، فقلت: يا سيد ان لنا هنا هدفاً مقدّساً، وهذا الهدف المقدس هو البكاء على **الامام الحسين** (ع) (فقال) الهدف هو البكاء اذن، فما أسهله! وأيّ فلسفة تكمن في البكاء؟! ولاشكَّ أن البكاء على **الامام الحسين** عمل جيد للغاية وينبغي القيام به، وما دام الهدف مقدّساً فلتكن الوسيلة ما تكون!!

فقلت: حسناً، اذا كان الامر يتعلّق بالعزاء والرثاء بحدّ ذاته فهل يمكن أن نقول كلاماً للعزاء ينطوي على امور فيها إهانة؟ أفهل هذا صحيح وصائب؟! (فقيل): هل تُذرف الدموع ام لا؟! اذا

كانت الدموع تنهمر نتيجة لذلك فاعملوا ما شئتم!... إنفخوا في المزامير واقرعوا الطبول، واتلوا المراثي وألبسوا الرجل ملابس المرأة واعملوا شبيه عرس القاسم، واختلقوا وحرّفوا!!

فقلت: لا معنى لهذه الامور في قضية **الامام الحسين** (ع).

(فقيل): ان قضية **الامام الحسين** تختلف عن غيرها من القضايا! فإن كذبتَ سامحك! وإن اختلفت سامحك! وإن حرّمتَ سامحك! وإن اصطنعت شهيداً سامحك! وإن ألبستَ الرجل ملابس المرأة سامحك! كلُّ ذنب تقترفه يسامحك لأنَّ الهدف مقدّس!!

وهكذا فإنَّ بعض الأفراد أقدموا على التزوير والاختلاق في هذه القضيّة ». (١١٦)

والتصور الآخر الذي يشير إليه الاستاذ يخصُّ ثورة **الامام الحسين** (ع):

«لقد بادرنا إلى القول: ان **الحسين بن علي** (ع) ثار لكي يُقتل ليكون ذلك كفّارة لذنوب الامّة! وسُفِك دمه لكي تُغفر لنا ذنوبنا، والآن لو سُئلنا: اين ورد مثل هذا القول؟ هل إن **الحسين** هو الذي قال ذلك؟ هل قال ذلك رسول الله؟ هل قال ذلك الامام؟ من الذي قال مثل هذا الكلام؟ فنجاب: ماشأننا نحن بمن قال ذلك وَلِمَ نسأل عنه؟ لقد قُتل **الامام الحسين** من أجل أن تُغفر ذنوبنا!». (١١٧)

لقد تطرق الاستاذ في محاضراته إلى كثير من هذه التحريفات والتصورات التحجُّرية التي طُرحت حول ثورة كربلاء، وننصح الراغبين في الاطلاع على ذلك بمراجعة أشرطة تسجيل تلك المحاضرات.

والآن ينبغي أن نرى ما هو سبب هذه التحريفات التحجُّرية وما منشَؤها

١١٦ــ صرخات الشهيد المطهري بشأن تحريفات واقعة عاشوراء/ص٥٠و٥١.

١١٧ــ المصدر نفسه/ص٨٤.

ومن المقصّرون فيها؟ يجيب الاستاذ بنفسه عن هذه التساؤلات فيقول:

«الحقيقة هي أنَّ التقصير في هذه القضيّة يتحمَّل مسؤوليّته الخواصُّ والعوامُّ كلاهما. امّا بالنسبة لتقصير الخواصّ (العلماء) ومسؤوليّتهم فربّما لا توجد حاجة كبيرة لتوضيح ذلك باعتباره واضحاً، وسوف أتطرق لذلك عندما أتعرّض لموضوع واجب العلماء ووظيفتهم، ولكن اعلموا أنَّ عامّة الناس هم أيضاً شريكون في هذه القضايا بنفس المستوى، وربّما اكثر أحياناً. بل إنّ عامّة الناس هم الّذين يغمطون الحقّ ويشيعون الخرافات».(١١٨)

* التحجُّر في الاجتهاد والتفقُّه:

المقصود بالتحجُّر في الاجتهاد والتفقُّه: التصلُّب غير المنطقي وعدم المرونة حيال التكامل والتطور الصحيح والمنطقي في الفقه والاجتهاد. ويعود التحجُّر والجمود في مضمار الفقه والاجتهاد الاسلامي الى قضية «انسداد باب الاجتهاد» عند أهل السنّة. يقول **الاستاذ المطهري** بهذا الصدد:

«كان حقُّ الاجتهاد محفوظاً وبابه مفتوحاً حتى القرن السابع الهجري. وفي هذا القرن تمَّ سلب هذا الحقّ من العلماء بمشورة وإجماع ملفّق لاسباب تاريخيّة خاصّة، وطفق العلماء يتّبعون ــ مضطرّين ــ آراء علماء القرنين الثاني والثالث الهجريّين دائماً، ومن هنا ظهرت إلى الوجود قضيّة حصر المذاهب الفقهيّة في المذاهب الأربعة المعروفة. ولقد كان سدُّ باب الاجتهاد فاجعة عظمى في العالم الإسلامي، وربّما كان ذلك ــ إلى حدٍّ ما ــ ردَّ فعل لسلسلة من الاجتهادات الإفراطيّة المتطرّفة، وعلى أية حال فقد بدأت حالات الجمود والركود في الفقه الإسلامي منذ ذلك الحين».(١١٩)

١١٨ــ المصدر نفسه/ص١٠٥و١٠٦.

١١٩ــ ختم النبوة/ص٩٣.

وعلى الرغم من أنَّ «سدّ باب الاجتهاد» قد حصل بين أتباع مذهب أهل السنّة ولكنَّ مذهب التشيُّع لم يبقَ بمأمن من الانعكاسات والآثار السلبيَّة والسيِّئة لهذه القضيَّة.

يقول (رض):

«لقد انسدَّ باب الاجتهاد بين أهل السنّة ولم يكن عالَم التشيُّع معنياً بذلك بشكل مباشر، لكنَّه ترك آثاراً سيِّئة عليه سواء أراد ذلك أم أبى. فقد وُجِدَت في فقه الشيعة آراء ونظريّات عميقة بعد القرن السابع، وفي بعض المراحل حصلت تغييرات واسعة. وفي الوقت نفسه لا يمكن إنكار ظهور اتجاهات في الجهاز الفقهي تميل نحو طرح القضايا بالشكل الذي كانت تُطرَح به قبل سبعة قرون، فضلاً عن التهرُّب عن مواجهة المسائل والقضايا التي يبرز الإحساس بالحاجة إليها يومياً، كما يُرى انعدام الرغبة في اكتشاف طرقٍ أحدث وأعمق بشكل واضح».(١٢٠)

ويمكن تصنيف التحجُّر في مضمار الفقاهة والاجتهاد إلى أربعة امور:

١ــ التعصب الاعمىٰ لفتاوى الفقهاء القدامىٰ

بعد أن انسدَّ باب الاجتهاد بقي علماء أهل السنّة يعملون طبقاً لفتاوىٰ مذاهبهم الأربعة (الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي) وينكرون كلّياً أيَّ اجتهاد جديد، ويرون أن العمل بالفقه الإسلامي ينحصر في نطاق فتاوىٰ أحد الأئمَّة الأربعة. بينما اعتبر علماء الشيعة ــ بعكس العلماء السنّة ــ أنَّ الاجتهاد جائز وأنَّ البقاء على فتاوىٰ علماء السلف جائز بشروط خاصَّة وفي مواطن معيَّنة، وهذا يُظهر روح الحرية والتفكير الحر لدىٰ علماء الشيعة، وعلى الرغم من نقطة القوَّة هذه نجد ــ في بعض الأحيان ــ أنَّ لدى بعض الأشخاص تعصُّباً خاصّاً لفتاوىٰ علماء السلف بحيث أنَّهم يرون أنَّ العدول عنها ليس جائزاً.

١٢٠ــ المصدر نفسه/ص٩٤.

ومن الصحيح ــ طبعاً ــ أنَّ فتاوى علماء السلف مهمة وخصوصاً الفتاوىٰ الاجماعيَّة والمشهورة، فهي تُعتَبر من الأدلّة التي تستحوذ على الاهتمام الفقهاء، ولكن الاجتهاد الشيعيَّ يحكم بأنه لا يجب الجمود على فتاوىٰ الفقهاء السابقين والتعصُّب الاعمىٰ لها لمجرَّد كونها «قديمة» ومن دون إقامة «الدليل» و «الحجّة».

وطبعاً ينبغي لنا الالتفات إلى أنَّ هذه المسألة تصدق بالنسبة للفتاوىٰ فقط، وإلّا فإنَّ طريقة الاجتهاد واسلوب الدراسة وتدريس الفقه ينبغي له أن يبقى سائراً وفقاً للأُسلوب «التقليدي» و «الجواهري» كما اكَّد ذلك مراراً **الامام الخميني (رضوان الله تعالى عليه)**. وهذا الامر هو نفسه «المرونة الايجابية» التي تم التطرُّق إليها فيما مضى من البحث.

وعلى أية حال، فان **الاستاذ المطهّري** يتحدث عن الاتّباع غير المنطقي للفتاوىٰ القديمة فيقول:

«ان التفكير في المسائل القديمة فقط والتي طالما جرىٰ التفكير بها والاكتفاء بتبديل عبارة (على الاقوىٰ) بـ (علىٰ الاحوط) او استبدال (على الاحوط) بدلاً من (على الاقوىٰ) ليس امراً ذا بال ولا يستحقُّ كلَّ هذه الضجّة والجهود».(١٢١)

٢ــ عدم الاهتمام بتأثيرات الزمان والمكان في الموضوعات

إن للزمان والمكان دوراً مهماً في تغيُّر المسائل والقضايا. فثمة موضوعات كثيرة لم تكن في السابق وظهرت الى الوجود نتيجة التطوُّرات التي حقَّقها الإنسان في العلوم المختلفة، وخصوصاً على الصعيد التكنولوجي. كما أنَّ كثيراً من الموضوعات القديمة تبدَّلت تبعاً للتغيُّرات الزمانية والمكانيَّة وحلّت محلّها موضوعات جديدة. وطبيعي أنَّ المسائل المستحدثة والموضوعات المتغيِّرة تتطلَّب أحكاماً جديدة ولا يمكن الإبقاء على الفتاوىٰ السابقة والتشبُّث بها وجعلها هي الملاك.

١٢١ــ عشر مقالات/أصل الاجتهاد في الاسلام/ص٩٩.

وبمقتضى النظرة الواعية وسداد الرأي فإنَّ على المجتهد أن تكون لديه الحسّاسية الكافية تجاه هذه الموضوعات، وأن ينهمك في استنباط أحكامها، بينما يحتِّم التحجُّر على المجتهد أن يغضَّ النظر ويتغافل عن هذه التغيُّرات والتبدُّلات، وأن يحكم بمعالجة المسائل المستحدثة بنفس الفتاوىٰ القديمة. يقول **الاستاذ الشهيد المطهري** بهذا الصدد:

«إنَّ (الحوادث الواقعة) هي نفس هذه المسائل الجديدة التي تظهر إلى الوجود من عهد الى آخر. وبين سنة وأُخرىٰ. ومطالعة الكتب الفقهيّة الصادرة في العهود والقرون المختلفة ومتابعتها تظهر لنا أنَّ مسائل جديدة تبرز الى الوجود تدريجيّاً وحسب احتياجات الناس، وهذه المسائل تدخل حيّز الفقه ويتولّى الفقهاء الاجابة عنها ولهذا فإنَّ الفقه يتوسَّع نطاقه تدريجياً.

ولو شاء شخص ما أن يجري تحقيقاً في هذا المضمار فإنّه سيدرك مثلاً متى دخلت هذه المسألة أو تلك حيِّز الفقه، وفي أيِّ قرن وفي أيِّ منطقة وكيف حصلت الحاجة لمثل هذه المسألة؟ واذا لم يُجِب المجتهد الحيُّ عن المسائل الجديدة ويعالجها فما الفرق ــ اذن ــ بين المجتهد الحيِّ والميِّت؟ اذا لم يكن ثمَّة فرقٌ بينهما فمن الأفضل ــ والحال هذه ــ تقليد بعض الفقهاء الأموات الذين يعترف المجتهدون الأحياء أنفسهم بأن اولئك الفقهاء الاموات ــ **مثل الشيخ الانصاري** ــ أعلم وأفضل وأفقه من المجتهدين الاحياء كلِّهم. وفي الاساس فان سرَّ الاجتهاد ومغزاه هو مطابقة الاوامر العامّة مع المسائل الجديدة والحوادث المتغيِّرة. والمجتهد الحقيقي هو الذي يكتشف هذا السرَّ ويدرك ذلك المغزىٰ فيلتفت الى كيفيَّة تغيُّر الموضوعات فيتغيَّر حكمها طبعاً تبعاً لذلك».(١٢٢)

١٢٢ــ المصدر نفسه/ص٩٨.

٣ـ عدم معرفة الموضوعات بشكل كاف

ان أحد مستلزمات الاستنباط الصحيح هو أن يكون لدىٰ الفقيه الذي يريد أن يفتي بشأن الموضوعات المختلفة؛ الاطّلاع والاحاطة اللازمة. ويحصل أحياناً أن يصدر المجتهد فتوىٰ غير صحيحة في موضوع ما بسبب عدم اطّلاعه بدقّة على كنه ذلك الموضوع وخصائصه. أيّ أنّ فتواه تخصّ موضوعاً آخر غير الموضوع المقصود. وعدم معرفة الموضوعات ــ وخصوصاً فيما يخصّ المسائل الحكوميّة والاجتماعيّة ــ من الممكن أن يؤدّي الى صدور فتاوٍ ليست مخالفة للحكم الشرعي وحسب وانما من شأنها أن تخلق مشكلات للناس وللنظام الاسلامي. وفي مجال الموضوعات التخصُّصية والفنّيّة ينبغي للمجتهد أن يستفيد حتماً من الخبراء والمتخصّصين في ذلك المجال موضع البحث، وبعد فهم الموضوع والإحاطة به ومعرفة تفاصيله يبادر الى استخراج الحكم واستنباطه. وهذا ما يشير إليه **الشهيد المطهّري** حينما يقول:

«يجب أن تكون لدىٰ الفقيه إحاطة تامّة بالموضوعات التي يُصدر بشأنها فتاواه، فاذا كان ثمّة فقيه يلازم زاوية بيته او مدرسته دائماً، وآخر يخوض تيّارات الحياة ومجرياتها ويعالج ملابسات الواقع عن كثب، فحينما يراجع هذان الفقيهان الأدلّة الشرعيّة ومصادر الأحكام فإنّ كلّاً منهما سيكون له استنباط من نمط خاصّ ونحوٍ معيّن». (١٢٣)

٤ــ عدم الاهتمام الكافي بدور العلم في الاجتهاد

ان العقل ــ كما نعلم ــ أحد الأدلّة الأربعة للاجتهاد، وخصوصاً في المواطن والحالات التي تسكت الأدلّة الأُخرى فيها عن بيان حكم من الأحكام، اذ يمكن في هذه الحالة استخدام العقل لاستنباط الحكم الشرعي. بَيدَ أنَّ هناك ثُلّةً لا تهتمُّ بشكل كافٍ بدور هذا الدليل وأهميّته في مجال الاجتهاد. وعدم

١٢٣ــ المصدر نفسه/ص١٠٠.

الاهتمام هذا يمكن أن يكون ناتجاً عن تأثير الاتجاه السائد لدىٰ الاخباريين الذين يعتبرون السنَّة لوحدها ــ بل ظاهرها وحسب ــ هي الملاك والمعيار ويرفضون أيَّ دور للعقل ويخطّئونه.

كما ان ذلك يمكن أن يكون ناشئاً عن الخوف والاحتراس من الوقوع في القياس والاستحسان اللَّذين يسودان لدىٰ أهل السنّة، ويُعتبران لديهم من ضمن الأدلَّة العقليَّة للاجتهاد، بينما هما يندرجان في نطاق الأذواق الشخصيَّة وليسا ممّا أمضاه الشارع المقدَّس، ولذلك فليس لهما مكان يُذكر في الاجتهاد الشيعي.

وعلى أية حال فيجب الالتفات إلى الدور المهمِّ للعقل في مضمار الاجتهاد. يقول الاستاذ الشهيد آية الله **المطهّري** في هذا الخصوص:

«إنه لا يمكن إنكار هذا الأمر وهو أنَّ عدداً كبيراً من بين علماء الشيعة دفعهم الخوف من القياس واجتنابُهُ الى الإصابة بمرض الجمود. وقد وُجِدَ كثير من جامدي الافكار هؤلاء سواء بين الشيعة أو السنّة. فهؤلاء حينما يواجهون قضيَّة ما يبحثون لها عن جواب فإن وجدوه فهو المطلوب، وإن لم يجدوا حديثاً او حُكماً خاصاً فإنَّهم يلوذون بالصمت المُطبِق ولا يعطون أيَّ جواب؛ فلا هم يتّبعون القياس ولا هم ينتهجون الاجتهاد الصحيح».(١٢٤)

وهنا ينتهي بحثنا حول موضوع «الالتقاط والتحجر» من وجهة نظر الاستاذ الشهيد آية الله **المطهّري**، والذي تناولنا فيه الفكر التلفيقي الهجين والتحجر العقائدي، بَيدَ أن هذه النهاية لا تعني اختتام القيام بالمزيد من البحوث والمتابعات الأعمق في مؤلَّفات هذا الاستاذ الشهيد. ومن الضروري أن يبادر العلماء وأهل الرأي في التعمُّق والبحث أكثر فأكثر في كتابات الاستاذ وسبر أغوارها، ومن ثم عرض حصيلة جهودهم وثمار أتعابهم للمجتمع.

١٢٤ــ التكامل الاجتماعي للانسان/ص١٨٠.

المراجع والمصادر

* ملاحظة: جميع مصادر الكتاب باللغة الفارسية ماعدا ضحىٰ الاسلام (المترجم).

١ـــ الحركات الإسلاميّة في القرن الرابع عشر الهجري.

٢ـــ حول الثورة الإسلاميّة.

٣ـــ المعجم الجامع.

٤ـــ الدوافع نحو المادية.

٥ـــ افكار الترقي ـــ الميرزا ملكم خان.

٦ـــ مقدمة للنظرة الكونيّة الإسلامية ـــ الوحي والنبوّة.

٧ـــ احياء الفكر الديني في الاسلام ـــ العلامة اقبال.

٨ـــ فلسفة التاريخ من وجهة نظر القرآن ـــ الدكتور پيمان.

٩ـــ معرفة الإسلام ـــ الدكتور شريعتي.

١٠ـــ أُصول الفلسفة والمذهب الواقعي ـــ ج٥ ـــ تأليف العلامة الطباطبائي. تعليق الاستاذ المطهري.

١١ـــ الطريق المطوي ـــ بازركان.

١٢ـــ المجتمع والتاريخ.

١٣ـــ الملحمة الحسينية.

١٤ـــ الجذب والدفع في شخصيّة الامام علي (ع).

١٥ـــ ضحىٰ الاسلام.

١٦ـــ التعرف على العلوم الاسلامية.

١٧ـــ عشر مقالات.

١٨ـــ الإسلام ومتطلبات العصر.

١٩ـــ التعليم والتربية في الإسلام.

٢٠ـــ نظام حقوق المرأة في الإسلام.

٢١ـــ صرخات الشهيد المطهّري بشأن تحريفات واقعة عاشوراء.

٢٢ـــ ختم النبوّة.

٢٣ـــ التكامل الإجتماعيّ للإنسان.